موسى ولد إبنو

رواية

مدينة الرياح

أفويدير

دأب الباحثون من معهد آثار الفكر الإنساني على نبش القبور تنقيبا عن شواهد مطمورة من الحضارات السابقة. وفي هذا الفصل من العام كانت الحفريات منظمة في الغلاوية، بشمال المنكب البرزخي. استخرجت حتى الآن سبع عشرة جثة من عمق يتراوح بين سبعين، وثمانمائة سنتيمتر. كانت كل الجثث في حالة سيئة، عظامها نخرة تتفتت وتنسحق بسهولة عندما تهب الرياح وحين تلامسها الفرشاة.

لم تبق لهذه الحملة سوى جثة واحدة في قمة الجبل يجب استخراجها. حفروا سبعة أمتار لكي يصلوا إلى القبر. تلقف أفضل الباحثين الجثة بارتباك وتلهف تدفعهم رغبتهم الجامحة في استكناه فكر هذا الكائن المنبعث من العدم. إنه هنا مسجى في عزلة مثله مثل تل صقلته عوامل التعرية، جمجمته مطوقة بتاج مسنن من الرمل البلوري ذي اللون النضاري الفاتح. كشف الفحص البيوبلوري آثار مادة الميلين على هيئة بلورات صلبة. تحتوي بلورات الميلين على معلومات تحدد سرعة وسعة وتردد الموجات اللاستقطابية المميزة لنشاط الخلايا العصبية، وهي على شكل نسخ جزئية تعبر عن زخم المشاعر المختلجة في النفس عند سكرة الموت... توضع البلورات في محلول عالي التركيز من حامض "الديزوكسي ريبوزي" (ADN)، ثنائي التحلزن، من أجل كشف المعلومات وفك رموزها لتحول إلى جمل مكتوبة.

في مخبر المعهد، أخضعت البلورات للتحليل الفيزيائي الكيميائي، من أجل قراءة النسخ الجزئية. ولقنت هذه النسخ للحاسوب لفك أبجديتها وتحديد معانيها. في اللحظة الموالية بدأ النص يظهر على الشاشة.....

الذهب

... أنا في عالم جديد، تهاجمني خلاله ذكريات تافهة، غريبة، من الحياة التي تغادرني... وجاءت سكرة الموت بالحق... لم أعد في غفلة من شيء... بصري اليوم حديد... أضاءت سكرة الموت تلافيف حياتي التي ظهرت بصور مكبرة آلاف المرات، والزوايا المظلمة كأنما صوبت عليها آلاف الشموس الصحراوية الموتورة.
انزاحت الحواجز بين الظاهر والباطن، البادي والخفي، المعلوم والمجهول، ذابت الصفات المميزة في صفة واحدة في بؤرة الضوء!!... بحيرة وعيي التي ليس لها قاع، انفلقت في جميع الاتجاهات، كأنما ارتطمت بكوكب ساقط من علو ملايين السنين الضوئية. الوعي يتم من خارج منطقة الوعي. إنني من منطقة ما بعد الحياة، وما قبل الموت، من منطقة التخوم، أستعيد شريط حياتي.. أسمعه، وأراه، أدركه بالتفاصيل. ليس فيه قبل ولا بعد.. أنا الذي أفنيت حياتي أحاول بلا جدوى أن أربط حياتي بأحلامي، وشعوري بلا شعوري، ووعيي بوعي الآخرين، لأصدر حكمًا على الآخرين، وعلى ذاتي، وعلى الزمن، وارتدت محاولاتي يائسة مخذولة!!
هأنذا أشاهد ما عجزت عنه طوال حياتي يتحقق من تلقاء نفسه ساعة موتي!!

والآن، بعدما خرجت من الميدان، أرى نتيجة المعركة الحاسمة بين حياتي وأحلامي، مجسدة أمامي بدقة متناهية، كل شيء فيها يأخذ حجمه الصحيح، قبل أن تلتهمها بالوعة العدم.

أرى العالم كله من عدسة ناظور، كله الآن بديهيات، لم تعد ثمة ألغاز ولا أسرار.. كله على مستوى واحد من الوضوح. الزمن اختزل نفسه في بعد واحد، لم يعد ثمة ماض ولا مستقبل، أصبح حاضرًا فحسب!! وشخصت البداية!!

كانت ليلة ليلاء.. رأيتني أتقلب على فراشي الحشيشي المبلل.. أنصب شراكي للنوم، فيفر منها.. العرق يتصبب مني بغزارة..

تهاجمني جيوش البعوض من كل اتجاه.. وكتائب الأفكار المرعبة تحاصرني بلا رحمة.. هواجس المجهول الرهيب تنهشني من كل جانب، فاغرة أفواهها، كسرب من الذئاب. كان الجو ثقيلاً.. حارًا.. الرياح متوقفة تمامًا.. والهواء تحول إلى مادة لزجة.

على مدى يومين، كنت أسمع دقات الطبول من بعيد، معلنة قدوم قافلة الملح.. كانت تخز طبلة أذني.. تحدث في دماغي إحساسًا مشوّهًا. أرى طلائع القافلة: العبيد ما زالوا يضربون الطبول المثبتة بين أفخاذهم، على ظهور الجمال المحملة بصفائح الملح. أخذت الجمال تبرك تباعًا.. يفك الرجال عنها الأحمال.. إنها ترغي متألمة من الحفر الدامية التي أحدثتها الحبال الغائرة في ظهورها.

صفوا أمتعتهم في وحدات منفصلة وتركوها في ساحة السوق، وراحوا يضعون قيودًا قصيرة في أيدي الجمال... أخذوا القدائم، وراحوا يقطعون الأشجار، يقيمون منها زريبة لإقامتهم على مسافة من ساحة السوق.. كانوا يستنشقون بنَهم رطوبة الأجواء المطيرة، المشبعة بروائح الغابات، والمستنقعات، يطفئون بها نارًا مضرمة في خياشيمهم...

ما إن خالطت وعيي أطياف نوم شرود، حتى أحسست يدًا عنيفة تهزني.. وسمعت صوت أبي قريبًا مني:

- (فارا).. (فارا)، استيقظ يا ولدي.. أسرع.. استيقظ.. أسرع: نريد أن نتدارك الملح قبل أن ينفد!!

فتحت إحدى عيني بصعوبة.. كان الليل ما زال مخيمًا على الكون.. لم أستطع أن أميز شخص أبي الذي ما زال يهزني بعناد...

جلست متثاقلاً.. وأنا أدلك عيني المتكاسلتين. أحسست أبي يضع قدحًا ثقيلاً بين يدي:

- خذ!.. اشرب يا ولدي، سيكون القيظ شديدًا اليوم!!

رفعت القدح إلى شفتي، وازدرت بسرعة، جرعات من حامض اللبن الرائب.

غادرنا القرية في غبش الفجر.. كنا نمر في طرقات مستقيمة بين المزارع غربي قريتنا. كنا من قبل نذهب للقافلة، مصحوبين بالعبيد.. ليس عندنا عبيد اليوم، وليس عندنا ذهب أيضًا!!

- كيف نحصل على الملح يا أبي؟!

- سنرى!! قد يكون الأمر سهلاً!.. يكفي أن تطلب من أحدهم سلفة من الملح، على أن يكون القضاء مضاعفًا من الذهب والعبيد في الموسم القادم.

بدأت أشعة الشمس تكلل ذوائب أشجار السنط العنبري.. تتكاتف الأشجار المتوسطة والكبيرة، وتتعانق بعضها مع بعض، ونبتة العلندى تتسلق ببراعة جذوع الأشجار الكبيرة، وتدور على أغصانها دورات لولبية محكمة، وأحيانًا تجمع إلى غصن من شجرة، غصنا من شجرة أخرى. تنتظم أزهار النباتات القصيرة المزدحمة، وتتناسق في أطواق عجيبة...

كانت الظلال قصيرة مائلة إلى الغرب، عندما اقتربنا من سوق القافلة. صفائح الملح تسطع تحت أشعة الشمس ببريق يخطف الأبصار.. كان ثمة عشرة من العبيد المعروضين للمقايضة تحيط بهم دائرة من ربوات التبر، أتى بها أهل القرية لمقايضتها بالملح، كأنها الربوات الترابية التي تقام في حواشي الأضاة، في اليوم

المطير. وكانت ثمة أقداح كبيرة ملأى بالحبوب، وأكوام من نسيج القماش الملون، وقطع من العاج وبعض الخيول.

أمرني أبي أن أتقدم، وأنتظر تجار الملح. اجتاحتني هواجس الخوف أمام المجهول عندما وصلت ساحة السوق ووقفت مع العبيد. ظل الناس يأتون ببضائعهم.. يطرحونها وينصرفون.

كان التعامل التجاري بين زناتة وسكان بلاد الذهب، يتم بلا تخاطب. في وقت محدد يخرج التجار من زريبتهم إلى ساحة المقايضة، يتفحصون المعروضات.. ما يعجبهم يأخذونه إلى داخل الزريبة، ويتركون مكانه قدرًا معلومًا من الملح، وما لم يعجبهم يتركونه مكانه من غير مس، فيعلم صاحبه أنه غير مرغوب فيه، فيزيده أو يأتي بغيره.

عند منتصف النهار، خرج التجار من زريبتهم، وفي أيديهم القدائم لتقطيع ألواح الملح. وقف إلى جانبي رجل طويل القامة نحاسي البشرة، ملامحه قاسية كأنها منحوتة من مادة صلبة!! عيناه جمرتان دوّارتان كأنما وضعت كل منهما في قعر قدح عميق الغور. كان يرتدي صدرية، لم يعد ممكنًا تمييز قماشها من شدة الاتساخ، والتشمس، ويتمنطق حزامًا عريضًا تحته سراويل واسعة الرجلين، تلامس الركبتين. أحسست عينيه تتفحصان جسدي من ذؤابة الرأس، إلى أخمص القدمين.

- إن أبي، (ألفارا مول)، يطلب منكم أن تسلفوه شيئًا من الملح، على أن يكون القضاء مضاعفًا في الموسم القادم.

لم يجب الرجل.. ظننته أصم.. كررت ما قلته بصوت أعلى فلم يجب.. لكنه أخذ لوحًا كبيرًا من الملح ووضعه عند قدمي. فزعت!! إنهم عندما يشترون عبدًا، يقيسون موطئ قدميه على صفيحة الملح، ويحزونه بالمنشار.. يكون ذلك هو ثمن العبد!! أخذ بساقي اليسرى، ووضع قدمي بعنف على صفيحة الملح، ثم فعل كذلك بالساق اليمنى !! أخذ المنشار، وراح يقطع، متتبعًا حافة قدمي على الصفيحة، كمن يقيس نعلاً على قدم!!

ثم قسم بقية الصفيحة إلى قطع صغيرة متساوية، وانحاز إلى ربوات التبر، يحوش إحداها في مخلاته، ويترك مكانها قطعة ملح. وضع المخلاة على منكبيه، وسحبني من جناحي، يريد أن أرافقه إلى الزريبة!! استطعت بصعوبة أن أتملص من يده القوية القابضة على جناحي، واختطفت قطعة من الملح، وأطلقت ساقي للريح في اتجاه أبي.

أطلق التاجر صيحة، خيل إليّ أنها صاعقة من السماء.. تقاطر على أثرها رجال القافلة في إثري.. أحاطوا بي، ووضعوا في عنقي حبلاً، وراحوا يجرونني، باتجاه الزريبة! كلما اقترب مني أحدهم لسعني بلطمة حارة!!

ألقوا بي في الزريبة ضمن ثلة العبيد المشتراة حديثًا، وأنا مكتوف الرجلين واليدين، أتألم من أشياء كثيرة!!

أخذوا ينظمون الأمتعة ويصفونها في وحدات متماثلة، ويشدون كل وحدة على نفسها بحبال شديدة الفتل، من الحلفاء أو من ألياف لحاء الطلح، ويتركون لها عُري مثناة. أغلب الأمتعة من الحبوب المعبأة في (أجربة) ضخمة من الجلد كل واحد منها بحجم البقرة. ومجموعة من حزم القماش المتنافرة الألوان.

لقد باعت القافلة في هذا الموسم معظم أملاحها، وما زالت تحتفظ بالقليل منها. كان بينهم بضعة رجال سود يلبسون مثلهم، ويتكلمون لغتهم، يساعدونهم في إعداد الأمتعة.

وأحضروا الجمال. تحولت الزريبة إلى ساحة ملحمة: ضوضاء متواصلة، يختلط فيها رغاء الجمال، بتصايح الرجال، بالحركات السريعة، بالغبار المتصاعد. وحدهم العبيد الجدد، الراسفون في القيود، يشاهدون ما يجري ولا يشاركون فيه.

الجمال ليست متساوية.. منها الكبير، والصغير، وليس لها نفس الدرجة من الترويض، والخبرة، والوقار. بعضها هزيل، ظهره يشبه منوال الحائك، وبعضها ما زالت عليه بقية من سنام. الجمال الكبيرة لا تبالي بما ترى.. تبرك من تلقاء نفسها في المكان المناسب تمامًا في محاذاة الأحمال المهيأة.. تجتر ما أسلفت من

مخزونات الأعشاب، وبراعم الأشجار كأن الأمر لا يعنيها.. أما الصغيرة فهي أكثر انزعاجًا وأكثر لجاجًا.. ترغي بشكل متواصل، كأنها تستغيث بمجهول.. لا تبرك إلاّ بعد معركة عنيفة. أحد البعران، تقيأ جرَّته على وجه رجل كان يحاول إناخته. ترى، لو أفلت هذا البعير، هل يستطيع الرجال اللحاق به، والقبض عليه، كما حصل معي؟!

رأيت دائرة صغيرة على غارب أحد الجمال، عارية من الشعر، فتذكرت صلعة أبي، المحفوفة من ثلاث جهات بالشعر الأبيض. هل تشيب الجمال من ظهورها؟ تسمرت عيناي على صلعة الجمل الذي يمضغ جرته على جانبي الفكين بالتناوب. ورأيتني، وقد أصبحت في يوم من الأيام، جملاً أصلع وقورًا، بعد أن كنت بعيرًا شرودًا!

كانوا يؤثرون الجمال الهزيلة بالرحال، يضعون اللبلدة على الغارب، ويضعون الرحل فيمسك بالغارب كالكلابة. ويمدون الغرض من خلف الكركرة، كالحزام ويشدونها إلى الجانب الأيسر من الرحل.. أما الثغر (أدْنَابُه) فيشد الرحل من خاصرتيها إلى جذر الذنب، كيلا تنكفئ الرحل إلى الأمام. ثم ينوطون خلف الرحال العياب الخفيفة، وبعض اللوازم.

انتهوا من شد الرحال، وأخذوا يقربون الجمال الكبيرة من الأحمال الثقيلة. تبدأ العملية بنشر قطعة قماش على ظهر الجمل، وتوضع وسادتان متصلتان من طرفيهما على جانبي السنام، ترسو عليهما قاعدتا القتب الخشبيتان. وتشد الغرض كما في الرحل. ثم يشد القتب من الأمام بحبل يحيط بجذر رقبة الجمل على اللبة، ومن الخلف بحبل جلدي يشد القتب إلى جذر الذنب.

وهيأوا الأعدال عن يمين الجمل وشماله. يرتفع عدلان في اللحظة نفسها وتشتبك عراهما في لمح البصر، بواسطة أعواد الخلال التي يمسكونها بأسنانهم لتكون قريبة المتناول.

تعلق الجراب الصغيرة تحت الأعدال الكبيرة، كما تتبع نتاج الحيوانات أمهاتها.. وتعلق قرب الماء، فلا يكون أسفلها شيء.

الجمل الذي انتهى تجهيزه، لا يتركونه باركًا يغمزونه للوقوف.. وعندما يهم بالنهوض، يخففون عنه الأثقال.. يضعون أكفهم تحت الأعدال.. يرفعونها إلى الأعلى.. وعندما ينهض بصدره، يمسكون الحمولة من أطرافها الخلفية يدفعونها إلى الأمام، كي لا ينقطع الدير فتنفسخ الحمولة إلى مؤخرة الجمل. وعندما ترتفع مؤخرة الجمل إلى أعلى يدفعون الحمولة من أطرافها الأمامية إلى الخلف كي لا ينقطع الثغر فتتدحرج الحمولة على رقبة الجمل. ينفذون هذه الحركات المتعاكسة بصورة آلية شديدة السرعة.

عندما يستوي الجمل واقفًا، يقودونه بضع خطوات.. يفحصونه من الجانبين ومن الخلف.. كل شيء على ما يرام.. الأعدال متوازنة.. ربما اقتضي الأمر إرخاء الثغر قليلاً، أو زيادة شد الغرض.. أو إضافة بعض العلائق الخفيفة على هذا العدل أو ذاك، أو نزعها ضمانًا لدقة الموازنة.

وينصرفون إلى جمل آخر... البعران الصغيرة، يعقلونها من اليدين بحبل يمررونه من فوق عطفة العنق فلا تقدر على النهوض بحال.

وضعوا الحبال في أعناقنا، كما يضعون الزمام في خطام الجمل الكبير، أو في الأحناك السفلى للبعران الصغيرة.. ثم ربطوا كل واحد منا إلى مؤخرة جمل كهل. ركب الرجال المسنون الرحال وصُفَّت الجمال - وبينها العبيد - كأنها سلسلة متصلة من أشجار الدوم الماحلة.

كانت خطواتي - وأنا أتبع الجمل الذي يقودني - ترتبك... أعثر، أسقط.. يجرني الجمل السائر بانتظام.. أحس الحشائش الشائكة، تخدشني على صدري، وبطني، وفخذي.

سقطتي الأولى، كانت بسبب بول الجمل.. لم أكن أعرف أن الجمل يضخ بوله إلى الخلف. صفعت وجهي بشكل مفاجئ زخة قوية.. مضغوطة بعنف كان لها في عيني حرقة شديدة.. أغمضت عيني اضطرارًا، وحدت عن مسار الجمل.. اصطدمت بنتوء لا أدري ما هو، وسقطت. الجمل لا يبول كالثور أو الحمار.. بوله يستغرق ساعة كاملة، وهو مقسم على عدد لا يحصى من الزخات الصغيرة المنفصلة بعضها عن بعض، تدفعها طاقة

دفع قوية، كوتر السهم. وهذه الأسهم البولية الحادة مصوبة بعناية لا تخطئ لتمرق من بين الرجلين، وتسافر مسافة بعيدة!! المشكلة أن ذنب الجمل لا يستقر على حال.. فهو متحرك أبدًا، ذات اليمين وذات الشمال.. ونظام الضخات البولية، المرسلة تباعًا، مضبوط بدقة عجيبة، على نظام حركة الذنب، بحيث تنفذ الطلقة المتقدمة عندما يكون الذنب إلى اليمين، وتنفذ التي تليها عندما يكون الذنب إلى اليسار. خطر لي أن أمسك ذنب الجمل على وضع ثابت، وسط بين الرجلين، تمنيت أن أجعل منه متراسًا، عن الطلقات البولية...

القافلة تصعد المرتفعات المخضرة المعشوشبة، وتنحدر إلى منخفضات ووهاد تكسوها النباتات من كل نوع، وتمر في محاذاة أودية تتجافل منها الخنازير البرية، وقطط الخلاء التي تشرئب بأعناقها، محدقة في القافلة، حتى إذا داهمها الخطر، ابتلعتها الجحور كأنها لم تكن.

كانت قمم الروابي العالية، تتلفع بمسوح حمراء من أشعة الشمس الأرجوانية، فيما كانت تلقي بظلالها الداكنة على السهول والمنخفضات، فيبتلعها الليل قبل الأوان.

أناخت القافلة جمالها على شاطئ أضاة، محاطة بطوق من أشجار الدوم العملاقة.. بعضها ليس لها أغصان ولا أوراق.. إنما هي جذوع ضخمة، منتصبة في الهواء.. تكبر، وتتسع كلما كانت أقرب إلى الأرض، وترق وتنحف كلما استطالت إلى أعلى.. في جذوعها حفر كبيرة كالكهوف، يوجد فيها أحيانًا ماء مطري أنقى من ماء الأضاة الملوثة بفضلات الدواب، وقد يوجد في أحد هذه الكهوف حائك ينصب داخلها أدوات النسيج، وربما استوطنتها خلية نحل.. لكن القافلة لم تجد لا ماء نقيا، ولا عسلا.. وجدت جثة آدمية نتنة، لم يمض عليها وقت طويل: من عادة الفنفاريين أن يدفنوا الموسيقيين، والسحرة، في (جروف) شجر الدوم!

ما زلت مكتوفًا.. جيوش البعوض النهمة التي تستوطن الأضاة تغطي جسمي بكثافة!... لكن الإعياء خدرني. ومباشرة بعد تعريس القافلة، رحت في نوم عميق.. عميق.

رأيتني - في حلم مدهش - أنوش مذنّبًا في السماء. هذه الصورة هي الوحيدة التي وجدتني أتذكرها بوضوح عند ما استيقظت.. استغربتها زمنًا طويلاً.

أيقظني سيدي برفسات متتالية.. لم أدر كم مضى من الوقت وهو يرفسني.. كانوا قد أوقدوا نارًا كبيرة في المُعرَّس، وهم في حركة دائبة.. يتصايحون، يتنادون لرفع الأحمال على الجمال.

عند بزوغ الشمس، من وراء التلال.. كانت القافلة تعبر مسيلاً عريضًا.. يبدو أنهم حسبوا للأمر حسابه.. لم يلبسوا سراويلهم هذا الصباح.. كانت موضوعة على رؤوسهم.. استعاضوا عنها بأطراف الصدريات القصيرة المدلاة من الأمام والخلف. المياه تصل إلى أكتاف الرجال الطوال.. وتأخذ بحلاقيم القصار منهم.. الجمال تبدو بلا قوائم.. تبدو كالسلاحف الضخام، تحمل ذكورها على ظهورها تزحف بها على سطح الماء.

أزاحت المياه المتدفقة جبّة أحدهم، فكشفت عن رطل من الصوف الأسود، يتوسطه نتوء داكن، كأنه عمود مثبت بين فرعي دعامة شديدة البياض. حدجني الرجل بنظرة يتطاير منها الشرر فحولت بصري بعيدًا. كان هناك أناس يعبرون المسيل في الاتجاه المعاكس، يحملون على رؤوسهم الجرار.

هبت الرياح الشرقية حارة، واشتدت الحرارة في مرتفع الضحى. كانت الجمال تطيل الالتفات، عندما تمر في محاذاة شجرة ظليلة.. وكانت قطرات من الصُّنان تنبع من الذفرى، راسمة خطوطًا سوداء طويلة على صفحة عنق الجمل كأنها خطوط الأرضة على جذوع الأشجار الميتة.

في منتصف النهار، وفي كنف دومة عملاقة، على مسافة متوسطة من إحدى القرى، حطت القافلة، في انتظار القرى.. كان نساء القرية يخرجن من البيوت.. يطلن النظر إلى القافلة.. ثم يدخلن البيوت مسرعات.. لم تكمل القافلة الحط عن الجمال حتى امتلأت الساحة بالنساء يحملن على رؤوسهن القصعات الكبيرة الملأى باللبن الرائب، والحبوب، والدجاج الطبيخ، وطحين وردة النيل، والفاصوليا.. وكان الزناتيون يأخذون حاجتهم من هذه المعروضات، مقابل قطعات من الملح، احتفظوا بها لتغطية تكاليف رحلة العودة.

جاء رجل أشد بياضًا من المألوف: أشد بياضًا من رجال القافلة.. عيناه زرقاوان، تنبئان عن فضول شديد، تدوران بسرعة تشي بالحذر والتوجس.. كان مؤتزرًا بثوب وسخ يغطي الثلث الأوسط من قامته البيضاء.. كان يتكلم لغة القرويين ويرافقه رجل أسود يترجم عنه لأهل القافلة.

- أريد الالتحاق بقافلتكم إلى أودافوست، لقد حدثني العارفون، أنه توجد بتلك المدينة جوارٍ حسان الوجوه.. بيض الألوان.. ممشوقات القدود.. لا تنكسر لهن نهود.. لطاف الخصور.. ضخام الأرداف.. المستمتع بالثيب منهن كالمستمتع ببكر!!

رحبوا به، ودعوه للجلوس. كان (النصراني) صاحب شهية خارقة.. وكان مولعًا بنشاء محلى يصنعونه من عساقيل بقلة تشبه القلقاس. كان يزدرد كل ما يقدم له من النشاء ويطلب المزيد. جميع مشتريات القافلة من النشاء ازدردها (النصراني)، والعبيد!! لكنهم، بعد ساعات، أصيبوا بمغص شديد. كانوا يضعون أيديهم على بطونهم.. يتلوون.. تتقلص عضلات وجوههم. استدعي شيخ القافلة طبيب القرية، فسقاهم حساء من دقيق بعض البقول، مخلوطًا بالسكر واليانسون، وبعض التعاويذ.

عصفت بهم نوبات متتالية من القيء.. الواحد منهم يقيء كل ما شرب من النشاء. وكان آخر ما يقذفونه من بطونهم، مادة صفراء لزجة. فشل الدواء في حمل أحد العبيد على القيء، فمات متخومًا.

- أسرعوا بالجنازة.. لقد حان الرحيل!!

غسلوا الميت.. لفّوه في قماش أبيض.. صلّوا عليه.. ثم حملوه إلى مقبرة غير بعيدة.

كنا قد جهزنا الجمال استعدادًا للرحيل، عندما طلع علينا شيخ القرية يتبعه جيش من حملة السيوف والنبال. أحاطوا بالقافلة من جميع الجهات، كأنما يتوقعون فرارًا. كان الشيخ في منتهى الغضب.. ترتجف شفتاه.. وتتقبض أسارير وجهه المجعد، يرفع سيفه إلى أعلى كأنه يتوعد:

- ما الذي جرأكم، أيها اللقطاء، على هذه الفعلة المنكرة؟!.. ما الذي حملكم على إهانة موتانا، والإساءة إليهم؟!

جحظت عيون الزناتيين.. وأخذ منهم الرعب مأخذًا عظيمًا.. وراحت نظراتهم الفزعة، تنتقل بين الشيخ الغضبان المتوعد، والجند المسلحين المحيطين بنا متوقعين أمرًا غريبًا من الشيخ للفتك بهم. تقدم كبير القافلة:

جحظت عيون الزناتيين.. وأخذ منهم الرعب مأخذًا عظيمًا.. وراحت نظراتهم الفزعة، تنتقل بين الشيخ الغضبان المتوعد، والجند المسلحين المحيطين بنا متوقعين أمرًا غريبًا من الشيخ للفتك بهم. تقدم كبير القافلة:

- بأي وجه، يا حضرة الشيخ المحترم، تتهموننا بما لا يليق؟!.. نحن قافلة تجار مسالمين، ضيوف عليكم، فكيف نسيء إليكم، أو نتعمد إهانة موتاكم؟!

- أهذا جزاء الإحسان إليكم؟! بئسما تجازون الإحسان!!

- عفوًا يا حضرة الشيخ المحترم.. ألا يمكن أن تقولوا ماذا تنقمون منا؟!

- جريمتكم الشنعاء: أن تهينوا أرواح موتانا!!

- من أين لنا أن نهين أرواح الموتى؟!.. بل كيف نستطيع ذلك؟!

- ألم تدفنوا بينهم جثمان عبد؟!

- بلى، وماذا في ذلك؟

- إنها جريمة أن يدفن العبد إلى جانب الحر، وإهانة للحر أن يدفن إلى جانبه العبد.. إن للعبيد حياتهم الخاصة، ولهم مقابرهم الخاصة كذلك!!

- أرجو يا حضرة الشيخ المحترم أن تفهموا عذرنا.. نحن لم نكن ندري بهذا الأمر.. الناس في عادتنا متساوون في الموت.. سننبش القبر حالاً، ونحول الجنازة إلى مقبرة العبيد!!

- هذا لا يكفي.. يجب أن تعطونا عبدًا، نذبحه أضحية وقربانا، استرضاء وإطفاء لغضب أرواح موتانا!!

أشار (تالوثان) إلى أحد العبيد، فأمر شيخ القرية الجنود بسحبه من عنقه وقدميه.. كان يعلم أنهم يجرونه إلى مذبح القرابين.. كأي عجل يذبحه القرويون في مناسبات الأفراح. انصرف رجال القافلة إلى القبر ينبشونه، فيما كان خوار الأضحية الجديدة يمخر الفضاء.

نقلوا الجثمان إلى مقبرة العبيد، وجاءوا يهرولون.. صاح أحدهم:

- أنيخوا الجمال! المطر يلاحقكم!

اتجهت الأنظار جميعًا ناحية الشرق.. كان الأفق الشرقي ملبدًا بغيوم داكنة تشوبها حمرة في أسافلها.

أتبع رئيس القافلة الشمس الآفلة بنظرة آسفة وقال:

- ستكون ليلة مظلمة!

جمعوا الأمتعة في الناحية الغربية من جذع الدومة. وأمر أحد الكبار أن تناخ الجمال، بحيث تكون رؤوسها إلى الغرب.

هبت الرياح شديدة عاتية، تولول، وتتوعد.. رأيت أحد بيوت الحشيش تتطاير أشلاؤه في الهواء. قبل أن يطبق الغبار.. وتنعدم الرؤية تمامًا.. انقصف أحد أغصان الدومة وتدلى كالجناح الكسيح، وأحدث صوت انحطامه جفولاً واضطرابًا بين الجمال. كانت ذرات الحصى تصفع جسدي بقوة، فأحس لها وخز الأشواك عندما كان الجمل يجرني.

أخذت الرياح تهدأ رويدًا.. رويدًا.. وتتحول إلى نسيم منعش، مشبع بالرطوبة الباردة، ورائحة المطر. السحب أصبحت لها خفة الأوعية الفارغة.. أحجامها صغيرة وحركتها أسرع.. تتتابع مهرولة إلى الغرب، كأنما يطارد بعضها بعضًا..

كان نصف قمر، قد أطل من الأفق حيث كانت الظلمة معسكرة قبل ساعات.. كانت أشعته الباهرة، تلامس ذيول السحب المغربة، كأنها تحدوها، وتحثها على الإسراع، وإخلاء الميدان.

ارتفع القمر قامة دومة، وأصبحت السماء نظيفة، صافية كالمرآة.

نشطت أقدام رجال القافلة في رفس العبيد الكسالى، الذين كانت رؤوس بعضهم تتمايل من النعاس. بدأت طقوس العادة المألوفة من حمل الأمتعة على الجمال.

كان نصف القمر كافيًا لتمكين القافلة من السرى، في ظروف ملائمة.

تحولت القافلة إلى قطار مستقيم: جمل إثر آخر.. الناظر إليها من الأمام أو الخلف، يحسبها جملاً واحدًا. لكنها تمتد مسافة فرسخ. العبيد الجدد كالجمال، يكون الواحد منهم بين ذنب جمل، وأنف آخر.. والرجال يمشون على جانبي القافلة، وبضعة منهم يتبعونها.

تحولت القافلة إلى قطار مستقيم: جمل إثر آخر.. الناظر إليها من الأمام أو الخلف، يحسبها جملاً واحدًا. لكنها تمتد مسافة فرسخ. العبيد الجدد كالجمال، يكون الواحد منهم بين ذنب جمل، وأنف آخر.. والرجال يمشون على جانبي القافلة، وبضعة منهم يتبعونها.

لم تعد تضايقني زخات البول من الجمل الذي يقودني.. لكن فرائصي ارتعدت بعنف.. اقشعر بدني من هول المفاجأة.. الجمل - ورائي - عطس عطسة فظيعة اهتز لها كياني.. كان رأسه الضخم فوق رأسي تمامًا.. أيقنت أنه سيلتقم رأسي، كما يلتقم البراعم، ويفصلها من أغصانها. أحسست أن عنقي رشت بسائل ساخن لزج...

مر في محاذاتي (النصراني)، بين يديه سبحة طويلة راحت حباتها تنزلق من بين أصابعه، وترتطم بعضها ببعض.. محدثة طقطقة منتظمة. كان قد تعب، بعد ساعات من السير في طريق وعر.. فأراد أن يتشفع بهذا السلوك الديني، عسي أن يرق له رجال القافلة فيركبوه..

صار (النصراني) يساير كل صاحب جمل بعض الوقت، يشكو إليه التعب ويرجوه أن يركبه.. لكنهم كانوا يعرفون أن الجمال مثقلة بما يكفي، وهي أعز على قلوبهم من (النصراني). لو كان للجمال قدرة إضافية لركبها أصحابها!! لم يُجْدِ الإلحاح شيئًا، فرفع صوته بالشكوى:

- تعبت كثيرًا، إنني مرهق جدًّا.. قدماي داميتان من الأشواك.. لم أعد أستطيع مواصلة السير!!

لم تكن (للنصراني) دربة على السير الطويل.. وهو منهك من التخمة، وما تبعها من دواء وقيء. كان بعضهم يجيبه:

- تسلّح بالصبر.. فالصبر مفتاح الفرج، والجنة حفّت بالمكاره.

كان يفهم من هذه الردود أنهم يسخرون من تقواه، وأن الجنة التي يشيرون إليها جنة نساء أودافوست التي يتجشم الصعاب لدخولها.

لما يئس من الجمال، تواطأ مع واحد من قدماء العبيد أن يحمله على ظهره، مقابل ثلاث ورقات من التبغ.

الطريق أشد وعورة من السابق.. توقعت أن ينكفئ أحد الجمال المثقلة في حفرة من الحفر، الرجال يعثرون بالأحراش هنا وهناك، لكن الجمال لا تعثر!! إنها تملك قدرة على الإبصار الليلي كالسباع!

صار العبد المركوب يتنفس تنفسًا متقاربًا.. يتوقف بين الفينة والأخرى ينزع من قدميه الأشواك.. الراكب منتصب على كاهله، واضعًا فخذيه البيضاوين على العاتقين، ورجلاه مدلاتان أمام الترقوتين، تلامس قدماه الخصرين. ظل راكبًا بينما العبد ينحني وينزع الأشواك.. لا يريد أن يتعب نفسه بالنزول، والركوب!! كان المركوب يخطو بصعوبة.. يتصبب عرقًا.. صار تنفسه زفيرًا وشهيقًا كالثور المريض.

- هل هي المرة الأولى التي ترافق فيها القوافل؟

قالها (النصراني) لمجرد أن يقول كلامًا. ربما ليبدد ضجر الطريق.

لم يجب المركوب على الفور، كان غاصًّا بالزفير والشهيق. ولما اعتدلت الطريق قليلاً، استطاع أن يلهث بجواب:

- سيدي زينكو... با ... (زينكو بادا) اشتراني... اشتراني بشيء من ... الملح... قب... قبل ذلك... كنت فلا... فلاحًا في حق... حقل من... التبغ... عند... مالكي الأول.

كان من الصعب فهم كلامه المتقطع باللهاث.. و(النصراني) لم يكن يصغي إليه، فهو لا يريد جوابًا أصلاً.. كان رافعًا خيشومه إلى أعلى، يتأمل درب التبانة.. الطريق البيضاء في السماء. ثبت بصره على الرامي الذي كان في برجه على وشك أن يطلق سهمه.. تراقبه بإعجاب، جميلات الصيف الثلاث. السماء من حول البرج، كانت

مرصعة بالجواهر اللماعة. والليل يسري على وتيرته الطبيعية، موهمًا الأشياء أن الزمن قد توقف، وأنها تستطيع معانقة وجودها خارج سلطانه!! لم يكن ثمة ما يخدش سكينة الليل، سوى أنفاس الجمال، وصوت انحطام الأعشاب تحت أخفافها.

مُوسَى أَسْبَعْ

الضياء الذي سربل الأفق منذ حين ما لبث أن تحول إلى وهج مشتعل أحمر، أفرغ السماء من نجومها، كأسراب الطير الهاربة من الحريق. وحدها الزهرة قاومت نار التنين، محتمية بفارسها القمر، قبل أن تختطفهما الشمس. نادى أحدهم بصوت مرتفع:

- حي على الصلاة!

لم ينيخوا الجمال، ثبتوا لكل جمل زمامه على شجرة منفصلة، اصطفوا بالمناكب، كما تصطف القافلة بالتتابع، وانفرد واحد منهم يتحركون لحركته، ويسكنون لسكونه يقلدونه فيما يفعل.

القرية الصغيرة النابتة على كتف الربوة، استيقظت لتوها على مشوارها السيزيفي. الرجال الغادون إلى حقول الدُّخْن والكتان، المتمايلة تحت أنفاس الصباح يمرون بالقافلة، يحدقون في المصلين، ويتابعون طريقهم.

صيادو الأسماك الصغيرة في الأضاة المحاذية للحقل، يضربون صفحة الماء بعصيٍّ كأذناب البقر، وينظمون السمك المصطاد على أعمدة طويلة يتدلى منها كأنه عقد طويل من تمائم السحرة. النساء والأطفال، والديكة، وجديان المعز يتراكضون في الطرقات الضيقة المتعرجة بين بيوت القرية. البيوت أخصاص من الحشيش المنسوج بعضه ببعض، ظهورها محدودبة، ململمة، كالقواقع، مداخلها واطئة يدخلها الناس راكعين.. ليس لها نوافذ. الحيطان، خضراء من الحشيش الأصلب موصولة بعضها ببعض، مدعمة ببعض الأعمدة المركوزة في الأرض. الحائط يحوي عددًا من الأخصاص حسب ضخامة العائلة، وهو لا يخضع لأي تخطيط، أو قياس.. يكون كبيرًا، أو صغيرًا.. ويكون مستقيمًا من جانب ومعوجًّا من جانب، ودائريًّا من جانب. ثمة أخصاص ليس لها حيطان، تحيط بها أعمدة خشب متباعدة..

- السلام عليكم...

نطقها المصلون بصوت واحد. وتفرق الرجال.. يعيدون تنظيم الجمال. وسارت القافلة إلى منتصف النهار.. الحرارة شديدة، والقيظ ثقيل.

حطت القافلة في فناء الشجرة التقليدية التي تنزل بها القوافل إزاء كل قرية. بائعات الأطعمة، والتاجرات تأخرن على غير المعتاد. هناك حادث عظيم في القرية!! أغلب سكان القرية مجتمعون في الساحة، هائجون يتخاصمون، يلوحون بأيديهم. هناك كومة من المتاع يلقي عليها الناس نظرة سريعة، وينصرفون غاضبين.. وآخرون في وسط الساحة يشدون وثاق إحدى الفتيات. إنهم يستعدون لرجم عروس لم تثبت عذريتها.

كانت بنت بضع عشرة سنة.. آية في الجمال.. جمالها - ربما - هو الذي ألقاها إلى التهلكة!!

أشحت ببصري عن المشهد المؤلم، فوقع على (مركوب) (النصراني)، يتهاوى بين الأحمال من شدة الإعياء. خلى سيده سبيله، لأنه أعطاه ورقات التبغ التي باع بها نفسه!! لقد أصبح (النصراني) صاحب فضل على السيد إذ أتاح له أن يستفيد من عبده في هذه الرحلة التي لم تكن للعبد فيها فائدة تذكر!

رأيت مراهقًا - من أهل القرية - يلعب لعبة (أديارا لاكسي) بخذروف في يده يسمع له دوي كزئير الأسد. تذكرت أني لاعب جيد..

عندما اقتلعتني القافلة من قريتي لم يكن قد مضى على اجتيازي سوى عشرة أيام، عندما اجتزت بامتياز امتحان الانتقال من جيل (الأشبال) إلى جيل (الأسود). كانت جماعة (الأسود) قد اصطفّت في صفّين يفصل بينهما ممرّ ضيق، يمر منه المترشح، وعلى كل واحد منهم أن يوجه لطمة إلى المترشح فإذا احتمل، وصبر، وثبت إلى النهاية يصبح (أسدًا).. وإذا اشتكى أو فر أو أظهر التألم، يبقى (شبلاً) في انتظار امتحان لاحق.

علمت (أسود) (أديارا لاكسي): استحداث زئير الأسد. من يدخل مجتمع (الأسود) يخلع ثياب المراهقة، ويلبس لباس (الأسود).. لقد أعطوني سروالاً مزينًا بسيور طويلة ملونة، بدل الخرقة القبيحة التي يلبسها المراهقون. كان سروالي من النوع الذي لا يلبسه إلاّ الناجحون بامتياز. الآن وقد اختطفتني القافلة فإن سروالي الثمين تلف وتمزق، وأنا أبتعد كل يوم عن القرية، وعن مجتمع (الأسود) فيها.

في كل القرى التي تمر بها القافلة يوجد (أشبال)، و(أسود)، و(شبان)، هم سادة ساحة القرية.. كما يوجد شيوخ معمّرون راحوا ينظرون إلى حقب الزمن كأنها أمواج تتحطم على شاطئ الأبد. كل أصحاب هذه الأعمار معرّضون لاختطاف القدر، كما اختطفني أنا قدر القافلة!!

كانت قبضة الشمس قد ارتخت قليلاً على الأرض، عندما جاءوا بالجمال وأناخوها بين الأعدال، ورفعوا عليها الأحمال.

كانت الظلال ضعف أشيائها عندما انطلقت القافلة ومرت في محاذاة الجانب الغربي للقرية. ظلال الجمال العملاقة المنتظمة، المتحركة على الأرض في تناسق، كانت أكثر إثارة لأهل القرية من الجمال نفسها.

كان (شيبارو)، دليل القافلة، يأخذ بزمام الجمل القائد. هذا الفنقاري من سهل تنبا أورا، لا يمكن معرفة عمره الحقيقي، إنه من ذلك النوع من الناس المخلَّدين في عمر الرجولة لا يبرحونها. وكان يلبس درعًا من الجلد لا يمكن معرفة عمرها أيضًا. وكان يخزع في مشيته لأن إحدى رجليه أقصر قليلاً من الأخرى. استوطن منذ زمن بعيد في أودافوست، الميناء الأعظم لمحيط المجدبة الكبرى، وامتهن دلالة القوافل.. كانت أجرته في الذهاب والإياب، ثمن صفيحة من الملح. الجمل القائد مملوك لتالوثان الزناتي، أحد أغنياء أودافوست، يملك بالإضافة إليه، عشرة جمال في القافلة.

(تالوثان)، هو الذي تجمعت حوله القافلة نحو بلاد الذهب.. لقد باع جميع ملحه في هذه الرحلة، وهو عائد بالكثير من الذهب وبضعة عبيد ممتازين. أحيانًا يسير في مقدمة القافلة إزاء الدليل، وأحيانًا في وسطها، ويكون طورًا في المؤخرة. يمسد لحيته الطويلة ويفكر في أمر أخذ عليه مجامع قلبه: قبل مغادرة أودافوست بأيام، وشى له أحدهم بأن زوجته تخونه مع عشيق لها!! احتلت مساحة ذهنه صورتها وهي تودعه مسافرًا..

(عجيب!! كانت تبدو متألمة، شديدة الانزعاج، ترجو ألاّ أسافر، تختلط في صوتها نبرة الحزن، بنبرة الغنج والدلال.. بقيت واقفة وقتًا طويلاً على عتبة الباب، تبكي، تتباكى؟ وتلوح بيديها تلبس قميصها الحريري، منفتح الأزرار العليا، كاشفًا أخدود الصدر البرونزي المارّ بين رمانتين متوثبتين.. ويشتد ضيقه على السرة، يغري بلطافة الخصر الدقيق. الدمعة المترقرقة في عينيها النجلاوين تهمّ بالانحدار، ولا تكاد، منحت لوجهها القمري جاذبية شهوانية مسعورة. كانت تمضغ كلمات تشير إلى نفاد صبرها واحتجاجها على الأسفار الدائمة الطويلة!!

(... عندما أرجع إلى أودافوست، سأعلن بعد أسابيع أني مسافر سفرًا بعيدًا.. سأهيئ لوازم السفر، وألتحق بإحدى القوافل، أرافقها إلى أول محطة، هناك سأعلن لهم أني نسيت أشياء مهمة ولا بد أن أعود.. سأعود ليلاً وأترك فرسي وسلاحي مسافة من البيت وأدخل متسللاً لا يراني أحد.. أراها تضاجعه تحت ضوء باهت أنيس، تظللهما سحابة من دخان البخور العطر.. هي لابسة لباس النوم، أصابعها تعبث بحنان بشعر رأسه الفاحم، كأنما تمشط لمته الكثيفة بأصابعها الطرية المبرعمة. أنفه وشفتاه يلامسان أخدود صدرها البرونزي بين ثدييها الناهدين المتمرّدين.

(سأرجع إلى فرسي وسلاحي وأدخل بهما دخولاً علنيًا، يبث الرعب في البيت.. إنها ترتبك في البحث عن الخدعة المناسبة لإخفاء العشيق.. أقول لها إني رجعت في هذا الوقت لأمر عادي جدًا.. أبدو لها صادقًا تمامًا وتهيئ لي العشاء،

(سوف تستمر في الإنكار. أقوم أنا إلى الغرفة.. أدخل على العشيق: (السلام عليكم!! تفضل يا حضرة الضيف: العشاء جاهز!!). (ليست لدي شهية للأكل في موقف كهذا.. الموت أحب إليّ من هذه الفضيحة التي أنا فيها!!). (لا تيأس! رجال كثيرون قبلك، وقعوا في شيء كهذا.. إنه أمر عادي لا يستحق كل هذا التضخيم.. هيا للعشاء).

(سيقبل آخر الأمر، ويتعشى معنا، وأودعه، وأخرجه من باب خلفي لا يراه أحد، سأجعله يحس أني حريص مثله على إخفاء كل شيء ونسيانه!!

سأطلقك بطريقة عادية ويتزوجك ضيفنا الكريم بصورة عادية أيضًا... لكن هذا لا يمكن أن يتحقق إلاّ بشرطين: أن ترسلي إلى أهلك يحضرون وتطلبي مني الطلاق وهم شاهدون.. وعليك أن تلحّي في الطلب. سأبدو كمن يرفض، لكني سأوافق في النهاية. الشرط الثاني: إذا مضى على زواجكما عام، أرسلي لي أن أزوركما في البيت.. على أن يكون زوجك حاضرًا. بهذه الطريقة يا زوجتي العزيزة، تكونين قد أنصفت حبك السامي، وأنقذتني أنا من الإحراج أمام الناس).

(... المؤكد أن زوجتي ستوافق بارتياح على اقتراحي، لأنها لا ترى حتى الآن من عشيقها سوى جوانبه الحسنة..)

سأرسل إلى أهلها أرجوهم أن يحاولوا صرفها عن مطلب الطلاق، وستقول لهم هي إنها لم تلق مني أي أذى، لكن عواطفها انصرفت إلى ناحية أخرى، ولا تستطيع التحكم فيها. وسأبدي أنا رغبتي في الاحتفاظ بها، وأوافق على الطلاق في الأخير، بشرط إسقاط حقوقها. وسيشكرني أهلها، وسيوجهون لها هي الملامة.

(أنا متأكد أنها عندما تتزوج عشيقها، وتعاشره معاشرة كاملة، ستتأكد أني أفضل منه بما لا يقاس.. وسيبدو لها العام دهرًا طويلاً.. ستستعجل نهاية العام لكي ترسل لي تطلب الزيارة المتفق عليها. ستنتظر إلى الزيارة، بوصفها فرصتها الوحيدة، للتخلص من عذابها.. سألبي دعوتها.. وسأجدها تنتظرني عند الباب، في أشد حالاتها فتنة وإغراء.. كاشفة عن مواطن الإثارة في جسدها!...).

تخلف (تالوثان) عن القافلة دون أن يشعر، تحت وطأة عالمه الخاص.. كان القمر قد ارتفع في السماء فبدت النجوم من حوله أقل عددًا من المعتاد، مبعثرة، لكنها أكثر بهاء. كان يخطو متباطئًا.. يمسد لحيته وهو يواصل اجترار غيرته:

(... كاشفة عن مواطن الإثارة في جسدها الناعم. ستطنب في الشكوى من زوجها، وهي تشير إليه بإصبعها أثناء الكلام. سيحتقن وجهه من الغضب، وتعصف به موجة عاتية من الغيرة المجنونة فلا يعود يبصر شيئًا.. يتجه إلى قوسه ويسدد لها سهمًا مسمومًا يرديها قتيلاً.. فينقضّ عليه أهلها، ويقتلونه قصاصًا.)

بهذه الخطة أكون قد انتقمت كما ينبغي، وتخلصت من هذه العاهرة وعشيقها، دون أن ألطخ يدي بالسائل الأحمر في عروقهما، المحمّل بالعار والشنار!

(إن بوسعي كذلك، إذا اقتربت القافلة من أودافوست، أن أركب جملاً أبكم. أسبق القافلة بليلة قبل اليوم المقرر لوصولنا. سأنيخ الجمل خلف الدار، وأدخل متسللاً. سأراه - عندما أقتحم المخدع - وهو يقبل جيدها بشراهة ونهم، وأصابعها مغروسة في كتفيه. لن يفطنا لدخولي، لأنهما في لحظة خارج الواقع، وخارج الزمن! أمرّ بهما، وأجعلهما يعتقدان أنّي لا أبالي بما يصنعان. سأقول كأنني أخاطب نفسي: (سَعْدَكْ يَا سَعْدُو مَغْلاَهَا عليهْ!!) سيكون لكلامي مفعول العقار الذي يبطل خدر العالم المسحور الذي يسبحان فيه. ستغمر كيانهما موجة عاتية ثقيلة من الإحساس المؤلم بالواقع الكئيب الشديد الوطء على أعصاب العاشقين السابحة في عالم النشوة البعيد. أنصرف عنهما وهما مذعوران، يتخاطفان قطع ثيابهما المختلطة بعضها ببعض. كلاهما يخطف ثياب الآخر ظانًّا أنها ثيابه. وآمر خادمتي المفضلة بإحضار المائدة.. سأتعشى وحدي، وأقفل الباب..)

أعود إلى غرفتي على رؤوس أصابعي، كأن الأمر لم يكن.. لكن عندما يدعو الداعي إلى الجولة القادمة من الحرب، وتحمل المدينة السلاح لصدِّ العدوّ، سألبس لامتي، وآمر (المسيح) وبقية العبيد بحمل السلاح، وعندما يلتقي الجيشان سآمر (المسيح) بالتقدم، وإنني أحميه من ورائه.. وعندما يتقدم أترك لهم المجال للإجهاز عليه. سيكون أول قتيل في المعركة، ولن يخطر ببال أحد أن موته كان انتقامًا.

(ستستقبلني زوجتي مهنئة بالسلامة.. أقول لها: (هذا جيد، ولكن عشيق القلب لم يسلم! أما الذي تهنئينه بالسلامة فما هو إلاّ أبو العيال!!).

(سوف تتذكر أنها قالت ذلك لعشيقها، وتتأكد أني سمعتها، وتطلب الطلاق، وأوافق...).

كانت الأرض قد لبست حلة من ديباج الأشعة البيضاء احتفاء بالشمس. توقف (تالوثان) على ربوة صغيرة ليخفف الضغط على مثانته. اصطدم الماء الأزرق بقشرة الأرض المحمرة في سواد، فزل عنها لأول وهلة، لكنه لم يلبث أن أحدث نقرة اتسعت مع استمرار خرطوم المياه، لتشكل أخدودا يمتد نصف ذراع. على الجانب الأيسر للأخدود تفرع خيط رقيق راح يتلوى كأنه الأفعى، تتقدم ببطء، باتجاه النعل السميكة المقطوعة من رقبة جلد حمار وحشي، والمزينة بحلقة من النحاس الأحمر، مثبتة عند ملتقى الشسع بالشراك. لكن الكسر الذي أحدثته النعل في القشرة الأرضية، أغرى أفعى البول بالانغراس في الأرض، قبل أن تلامس النعل. تململ قليلاً، وأخذ عودًا يابسًا. راح يمسح به بقايا القطرات العالقة.

كان الوقت يعطي للعين كامل مداها في الرؤية، عندما رفع رأسه ومد بصره ناحية الشمال الشرقي. رأى الجمال الأخيرة التي ابتعدت كثيرًا، رآها على وشك أن تبتلعها إحدى الوهاد.

لحق بنا في السهل، أدرك الركعة الثانية الأخيرة، أخذ مكانه في نهاية الصف.. أنا أيضًا كنت أصلي. لم تعد الصلاة تؤلمني كما في السابق، عندما كانت جروحي حديثة. كان سيدي يرغمني على الصلاة ويضربني إذا قمت إليها متكاسلاً..

كنت أنتهز فرصة التركيز ناحية القبلة، لأسترق النظر. رأيت نصف وجه (النصراني) المقوس. كانت بسمة شيطانية تلمح من على شفتيه المنزمتين.

عندما ارتفع الضحي، وصارت القافلة تسبح في سراب متلاطم الأمواج، عثر (شيبارو) على مرفأ مناسب وألقى مراسي القافلة تحت ظلال شجرة الدوم في مدخل قرية ساما.

كان رجال القرية يخلفون بلا ثياب.. عراة كيوم ولدتهم أمهاتهم.. وكانت النساء حليقات كأن رؤوسهن البطيخ. كن عاريات أيضًا.. إلاّ من أنساع رقيقة تتدلى قدر شبر على عاناتهن تكشفها أكثر مما تسترها. خرج النساء يحملن على رؤوسهن القصاع الكبيرة، وأخذ كل واحد من أهل القافلة حاجته. الفتاة الناعمة ذات العينين النجلاوين، تعمدت البقاء، بعد أن رجعت زميلاتها.. كانت تطيل النظر إلى وجه (تالوثان).. اقتربت منه، وقفت غير بعيد منه، قبالته تمامًا.. نطقت كلمات لم يفهمها.. صاح على (شيبارو) يطلب ترجمانا.

- ماذا تقول هذه الفتاة؟

كررت كلماتها، وعيناها مثبتتان على وجه (تالوثان).. ظهرت نشوة غامرة على وجه (شيبارو)، رفع يديه إلى فيه يحاول إخماد زوبعة من الضحك تكاد أن تنفجر في صدره.. لكن عينيه أفاضتاها دموعًا لامعة.

ألح (تالوثان) في الاستيضاح:

- ماذا تقول هذه الفتاة؟

- إنها.. ها.. ها.. تريد.. هاها تتمني أن.. هاها.. تنزع لها لحيتك، الطويلة، لـ.. هاها.. تلصقها على.. هاها.. عانتها.

- ماذا؟ تكلم يا ملعون! كيف تجرؤ الأمة على أن تقول شيئًا كهذا؟

كان (شيبارو) يدفن رأسه بين كفيه، ويتلوى من مقاومة نوبة الضحك.. حاول أن يرجع إلى مستوى من الجدية احترامًا لدرجة الغضب الذي أظهره الزناتي.

- الأمر عادي.. إنها عادة أهل هذه القرية، رؤوس النساء حليقة، وعاناتهن معفية. وطول شعر العانة من معايير الأنوثة والجمال...

لم يهدئ ذلك من غضب الزناتي بل زاده استعارًا، إذ رفع عصاه في وجه الفتاة التي ولت هاربة تلوذ بالأحمال المبعثرة، فراح يهرول في إثرها.. علقت رجلها بحبل من أحد الأحمال. فسقطت بين عدلين، وسقط فوقها

(تالوثان)! وأسمعا تجديفًا، وصيحات، وشهقات، وضحكات مكتومة.. ثم صيحات أخرى، وشهقات، وحشرجات...

توقفت أبصار أهل القافلة التي يداعبها نعاس القيلولة عن ملاحقتهما. من حول القافلة، كانت حيوانات قليلة مبعثرة، على وشك أن تأوي متزاحمة إلى ظلال الأشجار. وحدها الجمال لا يزعجها القيظ، إنها تبرك في الهجير، ورؤوسها مشرعة نحو الشمس. أما الكلاب والطيور الداجنة، فقد تجاوزت درجة الغليان فوق التراب المبلّل وتحت ظلال الأشجار.

كان جسداهما معروقين عندما نهضا من بين الأحمال، وكانت خطواتهما مرتبكة.. (تالوثان) ينفض الغبار عن لحيته الطويلة، والفتاة تصلح من وضع سترة السيور التي انحرفت. انطفأ غضب (تالوثان)، كالسحابة التي أفرغت شحنتها من البرق والرعد! كانت تمنحه لونًا أزرق داكنًا.

عندما ينتهون من إصلاح أوضاع القافلة، وينصرف المنصرفون منهم إلى الغناء والأحلام، والتدخين، نبقى نحن العبيد الجدد في عذابنا السرمدي. وتبقى الطبيعة من حولنا خلابة: السماء زرقاء عميقة صافية، شديدة البعد، تستحمّ في زرقتها البحرية العيون، نظيفة، إلاّ من بقايا قزَع صغيرة شاهقة العلوّ، كأنها عوامات بعيدة المنال.

هبات متقطعة من النسائم الدافئة تمر فوق القافلة، وتمضي مسرعة، تلفظ أنفاسها بين الحقول. إنها أنفاس القيظ الذي بدأ حشرجة الموت. ازدرد المدخن جذبة ثانية، كان قابضًا على الغليون بأسنان مسوسة يتخللها السواد، كأنها أصول عشب أكله الحريق. صاح به أحدهم:

- أعطني فضلة الغليون!!

ناوله الغليون، لكن الدخان الجيد كان قد نفد.. لم يتجرع إلاّ دخان البقايا المتكلسة في أشداق الغليون، دخان كريه، ثقيل الرائحة.

الظلال التي كانت منكمشة متطامنة على نفسها كالسلاحف، أخذت تمد أعناقها، وتتطاول بعيدًا، كأنما أصابتها نوبة من الشجاعة المفاجئة، فتحولت إلى جيش متكاثف يستعد للاستيلاء على مملكة الأرض. أسراب الطيور، أخذت تروح، وتجيء راسمة أشكالاً متحركة لا تحصى، كأنما تنفذ تمرينات أخيرة في عالم الحركة، قبل أن تلقي بنفسها في أحضان السكون. أسرع المدخنان خطاهما للحاق بالقافلة، كان صاحب الأسنان المسوسة هو الأمامي.

أحسست قشعريرة تسري في بدني، تغمرني. كائنات خفية تأتي من كل الجهات، وهي على عجلة من أمرها، تفتش عن مبيت.. الأشياء خلعت مظاهرها المألوفة.. ظهرت بوجوه جديدة مرعبة. إنها تتحرك، تحيا مع قدوم الليل!

استقبلتنا دومة قرية إيرسني للمبيت. لم يكن القمر قد طلع بعد.. ولولا فطنة (شيبارو) التي صدقتها نيران القرية ونباح كلابها، لضللنا الطريق. كالعادة أوقدنا نارا عظيمة، للاستضاءة وطرد جحافل البعوض.

كان طعام القرويات رديئًا، فلم تشتر القافلة سوى الحساء، واللبن الحامض. كان البعوض يعذّب الجمال، وهي ترفس وتضرب لباتها بأيديها، وأذنابها على جنوبها. أعطاني سيدي قدحًا من اللبن الرائب، نهلته دفعة واحدة، فلم يخفف إلاّ قليلاً من عطشي وجوعي وتعبي.

عندما أنهيت الخدمات التي يطلبها سيدي، نمت نومًا عميقًا، كأنه الموت.

غادرنا إيرسني بعد طلوع الشمس، كانت القرية ونواحيها سابحة في بحر من الضياء. أسراح الماشية تغادر مراحاتها، وقطيع من إناث المعز يحك جنوبه على جذوع الأشجار، ويحلم بالتيوس. القافلة تمخر عباب لجج الضوء الذي يكاد يتجسم، كأنه الفضة المذابة.

وضعوني في الحبل التقليدي، لست أدري لماذا لا يفهمون أني لم أعد بحاجة لذلك.. لقد بلغ مني التعب مبلغًا لا أفكر معه في شيء إطلاقًا.. وصلت مرحلة اليأس النهائي.. انقطع كل أمل لي بالعودة إلى الحرية.. إلى قريتي. كنت أشيح بوجهي إلى الوراء تحاشيًا لزخات بول الجمل أمامي، عندما وقعت عيناي على وجه عبد جديد: كانت عيناه محمرتين، تختلط دموعهما ببول الجمل على وجهه المطبق المنغلق.

هبت الرياح الجنوبية فأنقذتنا لبعض الوقت من بول الجمال. انحرفت الطريق إلى الشمال قليلاً، لتتجاوز إحدى الهضاب الكبيرة. وكان في منحدر الهضبة جحر كبير يشاهده القادمون من الجنوب، على مدخل الجحر عريش تغلفه أكوام ضخمة من الأقمشة المختلفة الألوان.

كلما تقدم سيرنا شمالاً، اتضحت معالم دار حجرية سقفها مقبب بشكل دائري، تقع شمالي العريش مباشرة، يخرج منها الرجال تباعًا، وهم يحملون قدورا، أقداحًا ضخامًا، ويضعونها أمام فوهة الجحر، وهم يطلقون صفيرًا غريبًا يتموج في جميع أنحاء السهل.

كانت القافلة على وشك أن تتجاوز إلى الجانب الآخر من الهضبة، حينما ظهرت فجأة ذؤابة رأس تنين من ظلمات الجحر، يشبه رأس الجمل.. لكن المشهد المثير ما لبث أن تواري مع تقدم القافلة.

عند مدخل قرية أغيارو، خارج سور الخندق المحيط بالقرية كالحزام، استقبل القافلة (أبو موسى) ومعه العبيد يحملون الأطعمة والشراب.. هذا المهاجر الإباضي، أصله من منطقة الجريد.. مر بالقرية مسافرًا في المرة الأولى، فأعجب بطريقة أهلها في الحياة التي تطبعها البساطة، وبأجسامهم القوية المتينة العارية.. فمكث فيها واستوطن، وأصبح منذ ذلك الوقت يشارك أهلها في حملات جمع التبر، وفي الغارات الدائمة على لملم، لسبي العبيد، والمتاجرة بهم في غانا وأودافوست.

عند مغادرتنا من الغد خرج يودّعنا إلى مسافة. كانت عيناه تدمعان، وصوته متهدجًا، وهو يهم بالرجوع، حنينًا إلى حياة الماضي، والقوافل. تمنيت لو تواتيني الشجاعة، فأقترح عليه أن نتبادل المواقع.

المسافة بين أغيارو وساماكاندا مغطاة بغابات كثيفة من الأراك، يمارس فيها شبان المنطقة هواياتهم.. يصطادون ثمر الأراك بالسهام. وبعد قرية ساماكاندا، يبدأ السهل الطويل الممتد إلى غانا.

غانا المدينة التي تسحرني دائمًا، بالأساطير التي تحكى عنها. لشد ما يؤلمني أنني لم أزرها إلاّ وأنا عبد. كنت ألعن الدهر الذي يسوقني إليها في مثل هذه الحال.

الرشق

في المحطة الأخيرة قبل غانا، أيقظني سيدي سحرًا، كنت مرهقًا لم أستيقظ إلاّ بجهد كبير. رفسني كثيرًا، وصبّ عليّ قدحًا من الماء.

كان أفق السماء من الشرق مسودًّا تتخافق فيه بروق سراع.. المطر يبدو قريبًا. كان العبيد قد حفروا لحودًا عميقة أودعوا فيها حمولة القافلة، رحت أحفر بسرعة، وسيدي ما زال يهذر بكلام طويل.. (كم أتمنى أن أدفنه في هذا اللحد بدل الأمتعة!!).. خلعنا الثياب جميعًا ودفنّاها مع المتاع.. صرنا عرايا، وتحلقنا حول النار بلا حرج، سواسية، عبيدًا، وأسيادًا!! لحظات قليلة وانهمر المطر.. استمرت السماء تمطر لبعض الوقت، كانت تمطر ماء وتمطر بردًا أيضًا.

ما إن كف المطر حتى تحولنا إلى حشد من قطط الخلاء، بينها الأبيض والأسود. تنبش الأرض.. تحفر مغارة جماعية. استخرجنا الثياب أولاً، وأخرجنا البضائع بسرعة..

- نسينا أن ندفن بعض أعواد الحطب مع الثياب! قالها أحدهم بنبرة متأسفة.

نجح صاحب الزناد المدخن في إشعال النار في فتيلة من القطن، لكن اشتعال الحطب المبلل استغرق وقتًا طويلاً، كان البرد خلاله شديدًا.

أطلّت أشعة الشمس حمراء ملتهبة، فسرى في أجسامنا دفء لذيذ. كان السهل على مدى الرؤية ما زال غائمًا، مثقلاً بضباب المياه المتبخرة، والقرى المبعثرة على جنبات السهل ترتفع من أمام بيوتها أعمدة الدخان الأبيض، تتصاعد ملتوية، كالأرواح العفريتية المنفلتة من قماقمها...

صاح أحد العبيد الراكبين:

- غانا.. غانا!..

مضى وقت قبل أن نتبين معالم المدينة.. بعد لأي، رأيت من خلال أمواج الضباب المتحركة مع الضحى أوائل المنارات.. استطعت بعد حين أن أحسب اثنتي عشرة منارة، تتراقص، تتقارب وتتباعد على وتيرة سير القافلة.

على المداخل استوقفنا الجنود، وجباة الملك.. أحْصَوْا عدد الجمال وتعرفوا على محتويات الأحمال، وحسبوا المستحقات ورسوم الدخول. صحت في مجموعة من الجنود كانت تمر قريبًا منى:

على المداخل استوقفنا الجنود، وجباة الملك.. أحْصَوْا عدد الجمال وتعرفوا على محتويات الأحمال، وحسبوا المستحقات ورسوم الدخول. صحت في مجموعة من الجنود كانت تمر قريبًا منى:

- النجدة!.. النجدة!.. ساعدوني أنا مختطف! اختطفتني القافلة عندما أرسلني أبي في طلب الملح!!

لسعني أحدهم لسعة قوية بعصا سهمه وزجرني بشدة:

- اسكت!!

دفعت القافلة الضرائب من الذهب والملح، وأذن لها بالدخول.

كنا نسير على الضفة اليمنى من النهر الذي يقسم المدينة شطرين. مررنا بالأحياء الواسعة في الضواحي الجنوبية المبنية من الأخصاص، وأحيانًا بالطوب أو الحجر.

كان أسراب من الأطفال العراة يتراكضون في محاذاة جانبي القافلة يتصايحون، ويرمون العبيد المكتوفين بالحجارة.. اضطرتني حملة الرجم التي ينفذها الأطفال، إلى المشي بين رجلي الجمل تمامًا.

كانت ثمة فتاة تحمل على رأسها قدحًا كبيرًا، تهرول إلى جانبي تفتش بنظراتها عن وجهي، وتصيح:

- لبن.. دجاج..

على المداخل استوقفنا الجنود، وجباة الملك.. أحْصَوْا عدد الجمال وتعرفوا على محتويات الأحمال، وحسبوا المستحقات ورسوم الدخول. صحت في مجموعة من الجنود كانت تمر قريبًا مني:

- النجدة!.. النجدة!.. ساعدوني أنا مختطف! اختطفتني القافلة عندما أرسلني أبي في طلب الملح!!

لسعني أحدهم لسعة قوية بعصا سهمه وزجرني بشدة:

- اسكت!!

دفعت القافلة الضرائب من الذهب والملح، وأذن لها بالدخول.

كنا نسير على الضفة اليمنى من النهر الذي يقسم المدينة شطرين. مررنا بالأحياء الواسعة في الضواحي الجنوبية المبنية من الأخصاص، وأحيانًا بالطوب أو الحجر.

كان أسراب من الأطفال العراة يتراكضون في محاذاة جانبي القافلة يتصايحون، ويرمون العبيد المكتوفين بالحجارة.. اضطرتني حملة الرجم التي ينفذها الأطفال، إلى المشي بين رجلي الجمل تمامًا.

كانت ثمة فتاة تحمل على رأسها قدحًا كبيرًا، تهرول إلى جانبي تفتش بنظراتها عن وجهي، وتصيح:

- لبن.. دجاج..

مررنا بحي مبنيّ من الحجارة الضخام، وعلى الضفة الأخرى، كان هناك قصر منيف، منزرع في قلب غابة كثيفة تحيطه من جميع الجهات. انحرف الجمل القائد عن محاذاة النهر، واختفى بين الحيطان على الجانب الأيمن، وانعطفت القافلة في إثره كالقوس! وجدتني داخل شارع ضيق متعرج، تحيط به دارات طوال ليس فيها نوافذ، عتباتها مرتفعة..

لم أعد أرى أمامي غير جملين، وذنب جمل ثالث، اختفت هي الأخري بسرعة إلى اليسار، واختفي في إثرها عنق الجمل الثاني، ومقدمه، ومؤخرته، ثم الجمل الذي أتبعه، وإذا بنا فجأة وسط ساحة فسيحة، مكتظة بالحوانيت والناس، والبضاعة، من كل نوع.

عندما دخلت وراء جملي، كانت الجمال الأوائل قد انتهت تمامًا من إنزال حمولتها.. وكانت ثمة قافلة أخرى تغادر السوق من شماله الشرقي. كنت مرهقًا، منهوكًا، ارتميت على الأرض، لم أنتظر أن يفكّوا عني الوثاق.. رآني سيدي فرفسني لكي أقوم. ساقوني مع بقية العبيد إلى حظيرة مغلقة يحيط بها سور حجري شاهق الارتفاع، وفي داخلها بضعة أكواخ. كان يحرسنا جنود ضخام بأيديهم السيوف والسهام.

أقمنا بغانا ثلاثة أسابيع، تعهدونا خلالها برعاية جيدة..

- إنكم تحضرون، وتهيأون للعرض في أسواق أودافوست! قالها يومًا أحدهم بدا مطلعًا.

في يوم من الأيام أخرجونا من الحظيرة فوجدنا القافلة جاهزة للانطلاق. وأرجعوني إلى حبلي وجملي..

كنا في المرحلة العاشرة بعد غانا، كنا نستعد للرحيل قبل طلوع الشمس، لكي نصل إلى أودافوست قبل منتصف النهار. الفجر المصفر كان يكشف أغطية الليل بسرعة عن وجه الأرض. يوقظ الأشياء من غفوتها بعنف. كانت الكائنات تستيقظ في ضجيج زارادشتي. كانت نار عظيمة تتوقد في المعرَّس.. فجأة انحدر إلينا من التل المقابل ثلاثون رجلاً تغمرهم سحابة غبار، خيولهم جياد ومسلحون بسهام طوال، وسيوف وخناجر. راودني ذلك الأمل الذي لا ينقطع إلاّ بانقطاع الحياة: أن العصابة ستبطش بالقافلة وتنهبها. وأني أستطيع في غمرة الرعب والفوضى، الإفلات والهرب إلى غانا... لكن رئيس القافلة أخذ بعض مخالي الذهب وتقدم بها بنفسه يهديها لزعيم العصابة، مع كثير من الاحترام والترحيب والتأهيل. فتح زعيم العصابة المخالي، فحص التبر بعينيه، وجربه بيده، وشمه بأنفه.. يظهر أنه أعجبه. رفع يده وأشار إلى رجاله بالانسحاب. اختفت العصابة بالسرعة التي ظهرت بها، وأحسست أنا بألم القيد كما لم أحس به من قبل... وتبخّر بصيص الأمل الذي راودني منذ لحظات، بنفس السرعة التي اختفت بها سحابة الغبار التي أثارتها العصابة.

عندما انطلقت القافلة، كانت الشمس تسفر عن تاجها. كانت حجارة الأماعز تلقي بظلال متكاسلة على الطريق، كأنها تتلذذ بالاستلقاء على الرمال الناعمة المستوية. كانت تصل آذاننا أصوات متقطعة ومنتظمة، تقفز من صخرة إلى أخرى. استغربت هذه الأصوات، لكني عندما رأيت رجلاً منكبًا على جذع شجرة علمت أن الحطابين اجتاحوا السهل. في الممرات المشجرة، وبين التلال، كان الشجر يرتعد خوفًا من حملة القدائم، لكنه مثبت في الأرض موثوق إليها لا يستطيع الفرار من الخطر الزاحف. أسراح كثيرة من الإبل، والبقر، والغنم، تتجمع على أفواه العيون، التي تكثر، وتتقارب باستمرار كلما اقتربنا من أودافوست.

عند العصر كانت القافلة قد وصلت إلى الهضبة البيضاء المطلة على أودافوست. المرابئ المنتشرة حول المدينة تصايحت مبشرة بقدوم القافلة.

كانت سحب سوداء، معلقة فوق المدينة القابعة في وهدة تحيط بها الجبال من كل الجهات. وعند الإطلال على المدينة، بدت مناراتها العالية تطاول السحب، وتخترقها غازية السماء. بقع المياه الراكدة في الشوارع تحولت

إلى مرايا لماعة. بيوت المدينة النائمة في ظلال حدائقها استقبلت القافلة بابتسامة حمراء. كان القيظ ما زال شديدًا برغم احتضار النهار، وكان يزيد وطأته ثقلاً رائحة الدخان الذي غطى بسحب كثيفة سماء الحي الجنوبي الشرقي المعلق على كتف الجبل.

كان باب ساحة القوافل عاليًا، يدخل منه راكب الجمل، كانت الجمال لا تستقر على حال بسبب الضجيج وازدحام الناس في الساحة. صاح سيدي الذي كان يفك عني الوثاق بكلام لم أتبينه، بسبب الضوضاء الصاخبة من حولنا.. جذبني بعنف من جناحي، وأوقفني إلى جانب أحد الجمال، ففهمت أن عليّ أن أحط الأحمال...

بعد أيام من الرعاية الجيدة، جاءوا بي إلى ساحة النخاسة، معرض العبيد التجاري.

كان سوق قافلة الملح يجذب الكثير من سكان أودافوست: فضوليون، وحدادون يبحثون عن الجلود، والمعادن الكريمة الضرورية لصناعتهم، وأناس يبحثون عن السلع النادرة يشترونها. وتجار العبيد، وصيادو الطرائف من الأخبار، واللغات والنوادر، وجحافل الشعراء والموسيقيين السآلين، الذربي الألسنة، والسحرة، والحواة، وباعة التمائم، والشعوذات (الحافظة من الجن، والعين، والواقية من أسلحة الحديد، أو تلك التي تجلب النجاح في الحب والسعادة الزوجية، أو ترويج التجارة). وأشياخ الطرق الصوفية، ودعاة الاتصال بالعالم الآخر. وبائعات الهوى المحترفات... جمهور مختلط من مختلف الأجناس والألوان تتلاقى فيه المسلمات المحتجبات، ونساء الطوارق الحاسرات الرؤوس والسودانيات الوثنيات حليقات الهام.

كنت معروضًا في جناح العبيد، قبالتنا تمامًا جناح الأسلحة التي تضم رماحًا من جميع العيارات، وأقواسًا من مختلف الأحجام، والسيوف الحادة، الشديدة اللمعان، وبيادر الأتراس. على يسارنا معرض الإماء وعن يميننا جناح الكلمة.. الإماء المعروضات شبه عرايا تتدلى على عاناتهن عقود من الخرز والعقيق الأحمر والخوص.. تبرز عظم مآزرهن، ودقاقة خصورهن. كان بعضهن يرقصن رقصة هز الأرداف على صوت مزمار يعزفه عنّين ساحر.. وأخريات يتخافتن بأغنية مؤثرة بنبرتها الدقيقة، ونطقها اللطيف.

نظرات الجمهور تتجول في حديقة مزهرة من الجمال الأنثوي. تحط على الشفاه الدقيقة، والخدود الأسيلة، والجفون الهدب، والخصور الهضيمة، والصدور المرمرية، والقوامات الرشيقة، والعيون الساحرة، والأنوف القنانيات، والثغور البراقة، والبشرة الناعمة المتلألئة، والشعور الملساء السَّبطة، أو الجعدة المنفوشة إلى أعلى كالقباب. بعض الزوار كانوا يمطون أعناقهم، ويفتحون مناخرهم للتزود من أريج عطور الجواري المثيرة. وكان هناك عنين بربري بوذي الشكل، يتولى التعريف بالبضاعة:

- هيا.. تعالوا!.. اقتربوا!.. لاحظوا كم هن جميلات فاتنات.. إنهن من أصول نبيلة، منهن نوبيات أصيلات.. انظروا إلى هذه، ووضع يده على خصر إحداهن.. تستطيعون أن تحصلوا عليها بمائة وخمسين دينارًا فقط!.. تقدموا.. انظروا، بإمكانكم أن تلمسوا إذا أردتم.

عندئذ رأيت (النصراني) يتقدم، ويزحف كالحشرة، يضع خيشومه المعقوف كالمنقار على هذه وتلك، وهاتيك من الإماء.

في جناح الكلام كان الخطباء مصطفين يبيعون الكلام بالقفيز والرطل: الشعر، النثر، التقاريظ، الهجاء، الغزل، الحكمة، اللطائف، الوصف، البيان، الجنون، الهذر... أوهام وأعاجيب وشطحات. أمام الجناح، كان ثمة جموع تزدحم تصدر عنها ضوضاء متقطعة: شعراء يبحثون عن غاوين، بخلاء جاؤوا يرتقون مرقعات جنونهم، مغرورون يبحثون عن المدائح السهلة، الرخيصة الأثمان. مبدعون يفتشون عن كلمات جديدة، أحيانًا يعثرون على كلمات كأنها مواليد تقذف بها الأرحام لأول مرة... ومهمومون بالوجود، يبحثون عنه في ركام الكلمات... وكان ثمة رجل كأنما يبحث تحت الألسنة، وبين كل الشفاه، يفتش عن المقطع الأخير الذي ينقصه لتكوين الكلمة التي تفي بكل معاني الكلام.

كانت النورن القديمة تتخطر متنقبة مبرقعة، من شاعر إلى آخر، يشع من عينيها جمال حزين، تقطف من أفواه الشعراء والخطباء زهور الكلام، توعيها في صُور ضخم تحت ثيابها، ترفعه إلى فمها من حين لآخر.

كان ثمة رجل دميم عظيم الهامة، يأتي كل يوم، ويشتري كلمات، يجمعها أمامنا في تشكيلة جديدة، لكنها تعطي دائمًا نفس المعنى... يتكلم للعبيد لغتهم، ويحاورهم. بدا لي أنه يوليني اهتمامًا خاصّا...

- إنكم بشر مثلهم، مثل الذين يدَّعون أنهم أسيادكم، قد تكونون أفضل منهم، لأن الذنب أزرى بهم... إن الشر يخزي الإنسان.. تحرروا!!

لم يكن الناس يولون اهتمامًا لما كان يقول.. ربما لم يكونوا يفهمونه. لكن بعض تجار العبيد، وبعض المتفرجين على الجناح كانوا يرجمونه بنظرات غادرة...

في المساء، عندما يتفرق جمهور السوق، ويهدأ الضجيج، متبخرًا في السماء مع غبار الأقدام، يوقد العبيد نارًا ضخمة ويأخذون في الغناء الحزين على ألحان (لَقَنْبَرَه) وحيدة الوتر، يعزف عليها عازف يسمونه (مَعْطَلّ). كان أبو الهامة الكبيرة يجالسنا، ويتذوق العزف والغناء، وبين الأغاني يحرضنا على التمرد.

بقيت معروضًا مدة أسابيع، لم يرغب فيّ أحد، إلى أن اشتراني رجل اسمه (أزْبَاغْرَهْ) ببضعة دنانير.. دار سيدي الجديد مقامة بجانب مسجد أودافوست الكبير في زقاق ضيق صامت، يتأفعى بين الدارات الكبيرة القليلة الكُوى. عندما جئت الدار للمرة الأولى، كان الناس خارجين لتوهم من صلاة العصر. على جانبي المدخل الرئيس على الشارع، يتفرع من الحائط مقعدان. وكانت عتبة الباب مزينة بزخارف جميلة وتتألف من عدة درجات. العتبة تعطي للدار فخامة كبيرة. الباب الأول من الداخل ثلاث خشبات حمراء اللون مرصوفة بعضها إلى جانب بعض، بواسطة مسامير على شكل دوائر تبدو للوهلة الأولى وكأنها زخرفة، فيما هي تؤدي في الواقع وظيفة التسمير العادية. جرس الباب عبارة عن حلقة نحاسية مزخرفة. ينفتح باب المدخل على ردهة مزودة بمقاعد نابتة ومتفرعة من جذر الحائط.. أول ما طالعني وأنا داخل، لوح حجري ضخم مثبت أعلى الباب، يحتوي نقوشًا عديدة. عندما تتجاوز الباب الذي ينتصب فوقه اللوح، تنتهي إلى غرفة واسعة، مصبوغة من الداخل بالمغرة، ومبلطة الأرضية بالصفائح الحجرية الملساء، وفي الزاوية الشمالية الغربية، تبدو الدرجات الأولى من سلم يبدو أنه يفضي إلى السطح.

يمكن العبور إلى البيوت الموالية عبر عتبة كبيرة واضحة، كما يمكن العبور إلى الفناء من عتبة أضيق. أقيم في الفناء ما يقارب العشرة من أخصاص الحشيش، يتنقل بينها الخدم في حركة مستمرة... سمعت موسيقى حالمة، وصوتًا لطيفًا يغني بنبرة حنين إلى ماض تولى.. كانت امرأة شابة تجلس في ظل الأصيل، على أريكة فوق متكإ من الأعواد المتشابكة يرتفع ذراعًا عند مدخل الممر تحيط بها كوكبة من الفتيان، تفصح عيونهم عن نهم متوحش فيما هي تداعب أوتار (أَرْدِينْ). تتخلل ضفائر شعرها السبط المرسل، علائق الذهب، والتمائم.. صدرها مكشوف، يزهو على ترقوتيها ونحرها عقد من الخرز بواسطة ذهبية تفترش النحر تمامًا.. يبرق في معصميها دملجان فضيان أبيضان.. الفتيان يتبارون في وزن القطع الشعرية على أوزان ألحان (أَرْدِينْ) بين يدي المغنية المعشوقة.

سلمني سيدي (أزْبَاغْرَهْ) إلى زعيم خولي أعور، يخيل إليك أنه ربان قافلة.. أشار إليّ أن أتبعه عبر بهو، يمثل ممرّا فاصلاً بين جناح السادة ومقرات الخول في الخلف.. فيها المراحيض، والمطابخ غير المسقوفة.. كان ثمة إماء يتصببن عرقًا، يتنقلن باستمرار بين القدور المنصوبة كل واحدة على ثلاث أثافي... تركني (الربان) في المطبخ، وعاد بعد لحظات يحمل كومة من الثياب الوسخة رماني بها وأشار إلى ربوة من الرماد الأبيض ثم أشار إلى سطلات في أحد جوانب المطبخ:

- اغسل هذا!! وليكن نظيفًا صقيلاً، وإذا لم يكن صقيلاً فستغسله مرة ثانية، تحت السياط! أسرع!! قالها وقدمه تلامس مؤخرة ظهري في رفسة قوية.

- أين الماء؟

سألته بصوت منسحق يثير الشفقة، لفت إليّ انتباه بعض الإماء، فتوجهت نظراتهن إليّ.

- في الحِسْي، في الجانب الآخر من الفناء!!

تركني ويداي ومنكباي مدلاة لا أدري من أين أبدأ.. لما أخذت السطل لجلب المياه من الحِسْي، دفعتني بقية فضول إلى النظر ناحية الأريكة التي كانت تجلس عليها المغنية وعشاقها. كانت ما تزال في مكانها، يحيط بها العشاق، وقد وضعت (أَرْدِينْ) وأخذت لمم بعضهم، وأركعتهم على ركبتيها وحضنها، تتلاعب بشعورهم، وتنفث في آذانهم نجوى خافتة، وتبتسم...

رجعت إلى المطبخ وعلى رأسي سطل ملآن بالماء يتدفق عليّ من الأمام، والوراء.. أخذت شيئًا من الرماد، وبدأت أغسل وإلى جانبي أمة شابة، تطحن الحب بين المهراس والمدق. كانت واقفة تردف صغيرها على ظهرها بخرقة من ثوب، وبين يديها مُدُق طويل، ململم الرأسين، ترفعه إلى أعلى، وترسله كالرمح إلى قعر المهراس.. كان قدها يعلو ويهبط، كما في ركوع الصلاة ويصاحب حركتها رزيم، ينطق به كيانها كله، تعبيرًا عن معاناتها القدرية.. وكانت عجوزان من الإماء، كلاهما ارتخت عضلات جسمها فأصبحت عظامها القوية كأنها تتحرك في وعاء، وكلاهما تعصب فوق حاجبيها بحزام، لو خلعته لتدلي جلد الجبهة وأغمض العينين، أثداؤهما تحولت إلى جرب جلدية فارغة تتدلى إلى مستوى الرفغ، كانتا تختصمان بشراسة، تضع كلتاهما أصابعها المرتجفة في عين ومناخر الأخرى.. تتخلل بقايا شعرها المجعد الأشيب مساحات عارية، كأنها الشوارع المتعرجة في الأحياء الفقيرة المزدحمة، ينعكس عليها شعاع شمس الأصيل، كما ينعكس على قطرات العرق المتساقط منها في خيوط مائية مستقيمة.

مع هبوط الظلام جاءني زعيم الخول الأعور، بدا عليه الارتياح من جودة غسيلي، فلم يلحقني بسوء.. أخذني في جولة تعريفية بالدار، راح يقودني من بيت لبيت.. يعلمني إشعال القناديل الزيتية، ومواقد التدفئة، والبخور الذي يطرد البعوض.

طلبني يومًا لإرسالي إلى السوق.

- خذ!.. هذه خمسة وثلاثون دينارًا... السيد دعا أحد الأصدقاء على العشاء.. اذهب إلى السوق، واشتر كلبًا سمينًا، وخمس منوات من الجعة الجيدة...

- كلب!! أنا لا أميز الكلب السمين من الهزيل...

- سحقًا لك! ارجع إلى المطبخ يا غبي!!

عندما نودي بأذان الصلاة، ناداني سيدي لمرافقته للمسجد.. كانت تلك عادته منذ أيام. في أوقات السحر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.. أحمل له سجادته، وإبريق وضوئه.

بناية المسجد واسعة جدّا.. الحجر المطلي بالمغرة كباقي البيوت الميسورة.. البناية تتوسط حائطًا واسعًا مبنيّا من الحجارة، مطليّا بالتراب.

كان للمسجد جناحان، أحدهما خلف الآخر لجهة القبلة.. تقع خلفهما مساحة مكشوفة تتوسطها أحساء الماء، وجرار ضخام، تحيط بها مصاطب من كل الجهات يجلس عليها المتوضئون. في وسط الجدار الشرقي للبناية غرفة المحراب حيث ينفرد إمام الصلاة.

للحائط الخارجي للمسجد ثلاثة أبواب، الجنوبي الغربي والجنوبي، والشمالي الغربي. الداخل إلى ساحة المسجد ينزل مع سلم من سبع درجات للقادم من الغرب، كأنما المسجد أخفض من الشوارع المحيطة به.

كان (أَزْبَاغَرَهْ) يتوضأ من إحدى الجرار مستقبلاً القبلة؛ يتمتم ببعض الأدعية. غسل اليدين أولاً، وتمضمض ثلاثًا واستنشق كذلك، ثم غسل الوجه والساعدين ثلاثًا ثلاثًا، ومسح رأسه براحتيه المبللتين ومسح أذنيه كذلك، ثم غسل القدم اليمنى فاليسرى.. وأغمض عينيه، وهو يتمتم بدعاء خافت رافعًا يديه قبالة وجهه.. لبث كذلك خافضًا رأسه كأنما يستنشق رائحة الثرى المتصاعدة من وضوئه.. وقف وتقدم خطوات، وتوقف.. وضع عرقوب قدمه اليمنى عند إبهام يسراه، ورفع اليسرى وفعل بها كما فعل باليمنى .. كرر ذلك مرة ثانية.. كان طول ظله أربعة أقدام: لقد حان وقت الظهر...

رفع رأسه وتقدم نحو سلم المنارة المربعة في الجنوب الغربي التي ينتصب برجها على قاعدة صخرية ضخمة. صعد إلى القمة. في نهاية السلم، التقط أنفاسه هنيهة، ثم صدع بالأذان لصلاة الظهر.. (الله أكبر!.. الله أكبر!..). توزعت أصداء الأذان في أرجاء المدينة التي كانت تجمدت فيها الحركة، تحت الشمس الصحراوية.. بدأ الناس يتوافدون فرادى، واجتمع في وقت قصير جمع كبير من الرجال الكهول، والشيوخ، والشباب، الأحرار والعبيد.. وضعوا أنفسهم خلف الإمام في صفوف موازية للحائط الشرقي...

كان المصلى واسعًا وقليل الانخفاض، وله فقط أربعة صحون عرضية موازية لجدار القبلة. الأعمدة رباعية الزوايا بلا قواعد ولا تيجان تحمل أقواسًا مجتازة، مرتفعة وضيقة ذات تسليح خشبي. كان كل من المنبر والمحراب مثنيّا، في حجرة مضاعفة وبارزة مستطيلة الشكل خارج الجدار ومحراب آخر أيضًا يشكل بروزًا إلى الخارج. كان لهذا المصلى سبعة أبواب: واحد في الجدار الجنوبي، أربعة في الجدار الغربي، ثلاثة منها تفضي إلى الأجنحة، وواحد إلى الساحة الكبرى، وبابان في الجدار الشرقي: واحد بين المحرابين يؤدي مباشرة إلى الساحة الكبرى وآخر يؤدي إلى الرواق. كان للجناح الشمالي الغربي باب شارع إلى الساحة الكبرى، وثلاث نوافذ في الجنوب تطل على الساحة الداخلية. وهناك عمودان كبيران من الحجارة يشغلان المنطقة الوسطى من القائمة. أما الجناح الجنوبي الغربي فقد كان له باب على الساحة الكبرى وبابان على الساحة الداخلية، وهي أبواب مقوسة ذات أقواس مجتازة ومنخفضة الوسط. وقد كان لهذا الجناح صحنان. الأقواس بين الأعمدة منخفضة وواسعة ومكونة من حجارة ذات فراغات بينية للتهوية، دون فتحة للقنطرة. كل شيء سكون وتجريد، لا وجود لأي ديكور تلويني أو بارز يزين المسجد.

بعد سنوات أسس (أَزْبَاغْرَهْ) مدرسة في المسجد... أصبحت رفيقه طيلة وقت الدرس.. أنفض سجادته، وأقيد الأطفال حتى يحفظوا دروسهم.. أهيئ المجمرة زمن الشتاء للتدفئة.. أرص المكتبة.. أهيئ الوضوء، وأدلك له جسده، بين الدرس والدرس إذا كان متعبًا... أصبحت أحفظ القرآن، والتفسير، وأتقنت العربية والنحو.. ومع الزمن أصبحت مدرسة (أَزْبَاغْرَهْ) مركز إشعاع لمذهب الإباضية في إفريقيا وحتى بلاد الأندلس... لم تفتني مطلقًا أي مناظرة من المناظرات اليومية بين الطلاب، حول القوة والعرض، وعلاقتهما بالفعل، والأفعال الإنسانية وعلاقتها بالخلق الإلهي.. وتقديم الكون، والكفر الأكبر، والكفر الأصغر، وحكم أبناء المشركين، وحكم المنافقين، ومسألة دلائل النبوءة، ومسألة الوحي، والكرامة، إلخ... لم يعد لكل هذه المسائل سر بالنسبة لي.

في أحد الأيام، حينما كنت أدلي سطلي في البئر، فاجأني صوت ارتطامه، صوبت بصري، لم أر ماء، إنما رأيت السطل متكئًا على صخرة جافة.. ركضت مسرعًا إبلغ زعيم الخول...

- كيف أصبحت يابسة؟! إذا كنت كاذبًا سأعاقبك!!

ذهب زعيم الخول إلى البئر ينظر في قعرها.

- لا قطرة ماء على الإطلاق.. هذا غريب.!!. أمس القريب كانت البئر ملأى بالماء!! يا للكارثة!! خذ السطل، واذهب للمسجد، ابحث عن الماء هناك..

خمس من الآبار السبع في المسجد جفت تمامًا.. البئران العميقتان الأخريان كان قعراهما نديّين قليلاً.. أخذت رشاءين وربطتهما بعضهما ببعض في محاولة للوصول إلى قعر البئر العميقة، أمتح الماء القليل المتبقي فيها.

عند صلاة الظهر، كان الخبر على كل الأفواه: (يبست الأحساء!!). بعد الصلاة بقي الناس في أماكنهم، كأنما تجمدوا من هول المفاجأة.

وقف الإمام وقال: (أدعوكم غدًا صباحًا، إلى الهضبة البيضاء لصلاة الاستسقاء).

جاء الرجال يرتدون الجلابيب البيضاء المطرزة بالخيوط الحمر. كانوا يسيرون ببطء مقوسة ظهورهم يتمتمون بأدعية استغفار بصوت خفيض، كانوا جميعًا يضعون عمائمهم على المناكب اليمنى .. وعلى ظهر الهضبة البيضاء اصطفوا صفًا واحدًا خلف الإمام.. بعد الركعتين استدار الإمام بوجهه إلى المصلين.. خطب وذكر الناس بذنوبهم، ودعا إلى التوبة النصوح، وطلب العفو من الله. ثم استقبل القبلة من جديد وحول عمامته إلى المنكب الأيسر. فعل كذلك المصلون الذين ظلوا جالسين.. عندئذ وقف (أبو الهامة):

- أنا أيضًا أدعوكم إلى الرجوع إلى جادة الصواب، حتى بعد فوات الأوان.. هذه الأرض برزخ، تركت زمنًا طويلاً للفوضى والطغيان. ما حاق بكم إنما هو تعاظمكم وكبرياؤكم، لا تحسبون هذه المدينة إلاّ جنّة للمتاجرة بالذهب والعبيد.. بنيتم المذاوب الضخمة لتصفية وصياغة الذهب، والنحاس وصناعة الزجاج والرصاص.. وحولتم المياه، والغابات إلى دخان، وبخار.. استهلكتم الماء والحطب بإسراف، وبدون أي تقدير للعواقب.. لم

تتركوا للمياه والنباتات فرصة للتجدد، والإثمار. أنتم المسؤولون عن هبوط المياه الجوفية، ويبس الآبار، والتصحر. وقريبًا ستجعلون الحياة مستحيلة في هذه المدينة. الصنهاجيون على حق في محاولتهم تحويل طرق القوافل عن أودافوست. لأنكم حولتم هذه المدينة إلى حيوان طفيلي أخل بنظام توازن هذه المنطقة... نعم لهم الحق في محاولة تغيير الواقع، أصحاب (ابن ياسين)، هؤلاء الذين تخافونهم، لأنهم سيضعون حدّا لحياتكم الفاحشة، ويحطمون آلاتكم الموسيقية، ويحرمون عليكم الخمور، وشواء الكلاب... لا يهمكم في الحياة سوى الأكل والتمتع بالنساء، لا يهمكم شيء آخر.. تعلنون إسلامكم، وتسترقون في نفس الوقت آلاف المسلمين... الآن ارجعوا إلى دياركم، وليحفر لكم عبيدكم آبارًا أعمق من هذه التي جفت، يمكن أن تجدوا الماء، لكن ذلك لن يكون إلاّ متاعًا مؤقتًا.. يمكن أن تواصلوا العيش هنا سنين. لكن سيأتي اليوم الذي يضع حدّا لجنونكم، سيأتي اليوم الذي تفنى فيه أمتكم وتخرب مدينتكم وتعودون نسيًا منسيّا!

اللين

في هذه الفترة الصعبة، تعرفت على (فاله)، أمة بربرية فاتنة، كانت تستقي من آبار المسجد. كانت معتدلة، عيناها صافيتان كالسماء التي غسلها المطر. كنا نلتقي كل ليلة في دار مهجورة في حي الصناع، على شارع منعزل تصل إليه أصداء المدينة خافتة. في أسحار بعض الليالي عندما يسمع عويل الرياح في الكدية، وعندما تتفتت الحجارة من البرد، كنا نوقد نارًا صغيرة في المواقد القديمة، وتبدأ ظلال غريبة متراقصة تتسلق الحيطان، وتمتلئ الدار بأرواح سكانها الأقدمين.. كانت أنفاس الرياح المتقطعة تنقل إلى آذاننا شظايا الأصوات التي تساقط معظمها قبل الوصول: نغمة موسيقية طائشة منسلخة من إطارها، تكبيرة يتيمة من أذان أو صلاة...

أحيانًا نتجول في الشوارع غير المرصوفة، نتمتع بلطافة وهدوء الليل.. وإذا رغبنا في اللقاء نهارًا، نتواعد كهفًا في جنب الكدية، يختبئ مدخله خلف حجارة ضخام، يستوطنه حمام الكدية. نلبث فيه أحيانًا، حتى هبوط الظلام. من هذا الموقع المرتفع كانت (فاله) تمارس هوايتها في مراقبة القوافل الطويلة المغادرة، أو القادمة، وهي تتهادى في بطء رتيب. أما أنا فقد كنت أكره هذا المنظر، وعوضًا عنه كنت أهيم في تقاطيع وجهها المتناسق، وشعرها الأشقر المتداخل، وأقرأ على وجهها وحي أحلامي المذهلة...

طلبت مني مرة أن أحضر قبل الوقت المعتاد. وعندما أرسلني زعيم الخَوَل أستقي من المسجد، تركت السطل عند البئر، وركضت لأصل إليها.. صعدت الكدية قفزًا على الحجارة، ووصلت الغار أتصبب عرقا، أزفر وأشهق.. كانت هي في الظل البارد وجهها متهلل.. عندما استرجعت أنفاسي راحت تكلمني بهدوء.. أقرت لي أنها منذ زمن كان لها دور ثابت في تحضير ثورة العبيد.

- تصور، نحن موجودون في كل دار بالعشرات، وهناك أفراد تجار في حوزة كل منهم أكثر من ألف عبد، باستطاعتنا الاستيلاء على المدينة وطردهم منها.. ومما يسهل ذلك الآن، أن الكثير من أغنياء التجار يفكرون بالهجرة إلى غانا، هربًا من احتمال زحف المرابطين. (ابن ياسين) وصنهاجته استولوا على سجلماسه.. والقوافل القادمة من هناك تتحدث عن هجوم وشيك على أودافوست.. نحن نحتاجك. قالوا عنك إنك أصبحت فقيهًا كبيرًا.. لا بد أن تعيننا لكي نوضح أن الدين لصالحنا.. لا يمكن أن نلتقي الليلة.. ستلتقي أنت و(مَعْطَلّ) في حي الصناع.. (مَعْطَلّ) هو شيخ الجماعة التي ستهيئ الكلام الذي سنقوله.. لقد أريته الدار المهجورة.. سيكون في انتظارك بعد صلاة العشاء.

وقبل أن تخرج، أخذت بيدي وقالت لي بمنتهى البساطة، كأن كلامها لا تترتب عليه أي عواقب:

- سنكون ثلاثة قريبًا.. أنا حامل، أنتظر مولودًا لك.

وعندما لم أجد عبارة مناسبة لجوابها أضافت: - لا تنس موعد (مَعْطَلّ) هذه الليلة.

وخرجت من الغار.. وراحت تتلكأ من صخرة لأخرى، هابطة كالظبية الآمنة.

في المرة الأولى، جمعنا (مَعْطَلّ) في حائط مربع، تحت ضوء القمر. كان عددنا عشرين، افتتح النقاش، وطالب بمبرر ديني لثورتنا:

- ... يجب أن نعرف إن كان الإسلام يبيح العبودية، وتحت أي شروط، وهل يمكن لمسلم أن يستعبد أخاه المسلم. يجب أن نحدد الوقت الذي ستكون فيه ثورتنا مستوفية مبرراتها. وفي حالة ما إذا كانت الثورة مشروعة، هل يجوز لنا أن نقتل عدوّا مسلمًا؟...

تكلم متدخلون عبروا عن مواقف متباينة، ودعم كل منهم وجهة نظره بالقرآن والسيرة النبوية وآثار السلف...

- من واجبنا أن نستكمل الاستعدادات المادية للثورة قبل أن نستكمل المبررات الأخلاقية.. نحن حتى الآن ليس لنا أسلحة، وإذا بدأنا الثورة الآن سنقمع ونغرق في دمائنا...

- إذن ليس لنا الحق في الثورة!! ذلك سيكون قتلاً للنفس وإلقاء بها للتهلكة، وهو ذنب.. لقد قال الرسول صلي الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرًا...).

- يبدو أنك نسيت بقية الحديث: (ذلك أضعف الإيمان!...).

- لماذا هذا الجدل الفقهي؟ نحن عبيد، والعقل الطبيعي يبرر ثورتنا.. إن في هذا البرزخ مصادرات للحرية، وفيه قوانين تسمح بأن يعامل الرجال كأشياء، وليس كبشر، وفيه العبودية.. لكن، ومن موقف مطلق، لا يمكن ممارسة أي ضغط ضد الإنسان.. لأن كل واحد حر في ذاته، أو هو ذات حرة، يستطيع أن يؤكد حريته تجاه الضرورة، وأن يتنكر لكل ما يتعلق بواقعه الحاضر، هكذا يكون القهر، والتمرد....

- يكفي! أوقفوا هذا الملحد!

- شيطان!

- نجس!

- خنزير مشرك!

- دهري!

- يكفي! ما هكذا يكون الحوار.. لا تتكلموا جميعًا في وقت واحد.. لينتظر كل منكم دوره.. لم أعد أسمح لك بالكلام.. دع الآخرين يجدون فرصتهم في الكلام، ستجد فرصة أخرى للكلام... نعم.. أنت!

- أنا أريد أولا أن نحدد الأصدقاء من الأعداء.. انظروا إلى العبيد الأغنياء الذين لا يؤدون الزكاة.. هل يمكن اعتبارهم أصدقاء؟ وهؤلاء الذين يبيعون الجواري قبل استبرائهن؟ وأطفال أسيادنا هل نعتبرهم أصدقاء، أم أعداء؟...

- فيما يخص أطفال الأسياد سبق لثعلبة أن أعطي الجواب: لا يمكننا اعتبارهم أصدقاء ولا أعداء، لا بد أن ندعوهم للحق عندما يرشدون. فإذا قبلوه، فهم أصدقاء، وإذا رفضوه فهم أعداء.. أما حكم بيع الجواري غير المستبرآت، فهو واضح.

الاستبراء واجب بالنسبة لكل أمة في كنف سيدها حتى ولو ادعى أنه لم يمسسها وحتى لو كانت وخشًا.. يجب أن تودع المبيعة عند رجل أمين، حتى تستبرأ...

- بالنسبة لي، كل تاجر عبيد إماء أو ذكورًا، هو عدو، حتى ولو طبق الفتاوي الفقهية أو لم يطبقها.. مرة أخرى.. المسألة مسألة حق طبيعي! لا بد أن نلغي واقعنا الحاضر، إذا أردنا أن نثبت أنفسنا ونبرهن على أننا رجال أحرار.. وبما أنه من الضروري للبشر أن يصارع بعضهم بعضًا، ويحاول كل طرف أن يبرز، ويؤكد وجوده، فالذين اختاروا الحياة بدلاً من الحرية، يكونون عاجزين عن الفعل بذواتهم، وعاجزين عن إثبات استقلاليتهم، ويدخلون في العبودية.. نحن هنا الليلة قررنا أن نثور!.. أن نموت من أجل الحرية!.. نحن اخترنا الحرية، بدلاً من الحياة.

- يا إلهي.. اللهم اشهد أني برئ من هذا المشرك!!

- نعم.. نرفض خطاب هذا الملحد!

- نفضل الموت عبيدًا مؤمنين، على أن نحيا أحرارًا مشركين!

لم يوقف (مَعْطَلّ) هذا الجدال، إلاّ قبيل الفجر.. وذكَّر الجماعة أن الحوار متواصل الليلة التالية في نفس المكان.

مضى شهر من الاجتماعات المتواصلة، دون أن نتقدم.. أصبحنا بضع طوائف لكل طائفة زعيم.. كان بيننا من يرون أن الثورة لم يحن وقتها بعد، وأنه يجب قبل الثورة، محاولة إقناع الأسياد بتطبيق نصوص الشريعة، وثمة من يرى أن الثورة ممكنة، بشرط احترام تعاليم الدين.. وهناك المطالبون بتحديد الأصدقاء والأعداء.. وهناك دعاة (العبودية الشرعية).. وهناك أخيرًا دعاة (الموت في سبيل الحرية).

صارحت (فاله) بالإحباط الذي أعانيه.

- لا يرجى لهؤلاء العبيد نجاح بسبب الانقسامات...

لكنها أصرت على الاحتفاظ بتفاؤلها الأول كاملاً غير منقوص:

- لا بد أن ننجح!.. سترى.. اصبر قليلاً، في ظرف ليال قليلة سيظهر حل جماعي، أنا متأكدة من ذلك.

ثم عرضت عليّ أن نزور جدتها، مؤكدة أن الزيارة سترفع معنوياتي...

- سترى أن جدتي مدهشة.. إنها كاهنة، ستنبئنا بخبايا مستقبلنا.

كانت جالسة في ركن من الحائط، أمام عش من الخرق البالية.. أخذت (فاله) يدي وبسطتها تحت عيني الكاهنة:

- جدتي.. هذا (فارا)، صديقي.. جئناك لكي تقرئي له مستقبله..

رفعت نحوي جبهة تغطيها الغضون، ثم هوت برأسها تنظر في يدي.. وفجأة أزاحت يدي جانبًا في حركة مرعوبة، واستدارت لتوليني ظهرها!.. ارتعبت (فاله):

- جدتي!.. جدتي!.. ما هي الحكاية؟ لماذا لا تقرئين كف صديقي؟

أجابت الكاهنة بحركة من يدها.. كأنما تريد منا أن ندعها وشأنها، ونبتعد عنها.. لكن (فاله) واصلت الإلحاح.. أخيرًا قالت الجدة بصوت هامس:

- يظهر لي، يا بنتي، أن الآلهة سقطوا على رؤوسهم، أو لعلهم سئموا أسئلتي، فقرروا أن يصيبوني بالجنون...

- جدتي! أنت لم تأخذي الوقت الكافي لرؤية كف (فارا)...

- لم أكن في حاجة لوقت.. كل ذلك ظهر لي دفعة واحدة، في لمح البصر...

- هذا غريب! لم أر في حياتي عمرًا بهذا الطول وهذا الشقاء!

- جدتي!...

- لا.. اسكتي! بما أنك ملحاحة سيتكلم الغيب: إن المدينة مليئة كلها بدخان البخور، والأذانات الممزوجة بالأنين.. هذا الرجل سيشرب من عين الخلود، لكن سيقتله ابنه!

- هذه العجوز خرفة مجنونة.. هكذا قلت مخاطبًا (فاله) وأنا أضع سبابتي في صدغي.

- (فارا)!.. تستطيع أن تسخر مني، ومن كهانتي، لكن لم يسبق لأحد قبلك أن سحقته الأقدار كما ستسحقك.. لن تستطيع أبدًا أن تحكم بتمعن على المستقبل بالحاضر...

- جدتي! جدتي! ما معنى هذا؟ أناشدك أن تجيبيني!!

- ليس لدي ما أضيفه يا بنتي.. تكلم الغيب، وانتهى!

في إحدى الليالي، وبعد أن سئم من الدوران في الجدال العقيم، قرر (مَعْطَلَّ) أن يقترع على الآراء المختلفة.. نجح دعاة محاولة إقناع الأسياد، بأصوات قليلة.. اتهمت الأقلية (مَعْطَلَّ) بأنه ساعد الطرف الآخر من خلال إدارته للحوار.

- هذا ليس عدلاً.. كان ينبغي أن تعطي الوقت الكافي للآراء لتتلاقح بعضها مع بعض، ويتمكن البعض من إقناع البعض...

كانت الليلة مظلمة بلا قمر، وكنا قد أوقدنا نارًا للاستضاءة، وكنا نشتغل في إعداد حجتنا حسب إرادة الأكثرية.. فجأة تقافز علينا رجال يطلقون صيحات مرعبة، بأيديهم الهراوي والسياط الغليظة يحيطون بنا من كل الجهات.. رأيت بشكل خاطف، على ضوء النار، وجه زعيم خول (أَزْبَاغْرَهْ) الأعور.. خيل إليّ أن وجهه، بصورة ما، وجه أفعى.. أحسست بصفعة قوية على عنقي، أطلقت صرخة لم تكتمل.. رأيت آلافا من النجوم المسرعة، ولم أعد أعي شيئًا...

انتبهت لنفسي وأنا غارق في كومة من القاذورات النتنة، وفهمت أني ملقى في غار الكنيف.. كانوا يلقون إليّ في فترات متباعدة بشيء يؤكل لا أميز طبيعته، وينزلون لي شرابًا من غسيل آلات المطبخ.

أحسست مرة، بشيء يتحرك على منكبي الأيمن، لمسته بيدي، فإذا هو حبل، وسمعت صوت الأعور، يأمرني بالصعود.. عقدت الحبل في حزامي، وأمسكته بيدي الخاملتين.. أخرجني من غار الكنيف وألقى بي في زاوية من المطبخ، بقيت أيامًا ورأسي مثبت في ربوة من الرماد، لا أستطيع حراكًا.. كان الإماء يعطينني الأكل والشراب دون أن يكلمنني.

خلال أيام العذاب هذه لم يكلمني سوى شخص واحد، هو أبو الهامة.. جاءني في المطبخ المكشوف وأنا أتوسد إحدى الأثافي، بعد أن بردت، والنجوم كأنها محتشدة في عيني المنفتحتين، سهران، ألعن الدهر: (لماذا الشر؟ ما الذي قسم البشر إلى عبيد وأسياد؟ بأي حالة استطاع أبي الذي أنجبنيورباني وحماني أن يلقي بي في أشداق الموت، ويبادلني بقطعة ملح؟). كانت هذه الأسئلة تهاجم ذهني كحشد من خفافيش الظلام، إذ سمعت صوت (أبي الهامة):

- في القدم، كان الخير مهيمنًا على العالم وحده، وكان في ضجر. وفي يوم من الأيام، فكر الخير في ذاته، تساءل عما يمكن أن يكون نقيضه.. فكان أن تجسدت تلك الفكرة، وتكون الشر.. ومنذ ذلك الوقت، ما زالت مملكة الشر تتسع، ومملكة الخير تنقص يومًا بعد يوم...

- والبشر؟ قلتها مقاطعًا.

- البشر؟ هم آخر اختراعات الشر، أخطر حيله... انظر مثلاً ذلك الذي وشى بكم...

- هل وشى بنا أحد؟!

- وشى بكم أحد العبيد الذين لم يحصلوا على أكثرية.

- ما عاد يهمني أن أفهم شيئًا عما جرى.. ما يهمني الآن هو أن أنقذ نفسي من العبودية وأن أعيش في زمن آخر يكون البشر فيه أفضل..

- قد يتحقق حلمك هذا في يوم ما.. إذا كنت ترفض القدر، فاهرب من البشر، والجأ إلى الصحراء، وانتظر أمر ربك.

أشحت ببصري عن السماء، وأخذت أحدق في هذا القزم الكبير الهامة الذي يكلمني: (عجيبة هذه الدمامة الشديدة المنفرة. لكن في نبرته ونظراته يستطيع المرء أن يكتشف كائنًا في منتهى الجمال، خلف هذا القناع الدميم!!).

البَرَّانِي

يقيت في المطبخ إلى أن كان يوم أخرجوني منه، وربطوني إلى ذنب جمل، وغادرت أودافوست قبيل الفجر في قافلة سجلماسه.

عندما طلعت الشمس، كانت هضبة أودافوست البيضاء قد توارت جنوبًا، واطمأن مسير القافلة.. كنا نمر بغابة من القتاد تحتل سهلاً طويلاً ممتدًا بين كثيبين يمتدان بطوله من الجنوب إلى الشمال.. كانت برودة الأرض الملساء تحت قدمي الحافيتين أحسها لذيذة في البداية.. لكنني بعد حين أصبحت أحس الألم من قدمي اللتين تآكلت بشرتهما من باطن القدم بفعل حت الحصى، بعد ساعة تقريبًا لم أعد أطيق المشي من الألم.. من حسن الحظ أن الجمل الذي يقودني كان غير مذلل، كان يلبط ويرفس، مما يضطر القافلة للتوقف لإصلاح وضع حمولته.. كانت لحظة التوقف فترة استراحة لا تعوض.

بعد أيام من السير كانت القافلة تجانب سلسلة جبلية تلونها كدرة مغرة، وتمكنت من عبور السلسلة من مكان ارتفعت فيه الرمال.. كانت الإبل متصلة يتلو بعضها بعضًا، والعبيد يمشون إلى جانبها لكيلا تدهسهم.. ورجال القافلة يمشون أمامها وخلفها وعلى الجانبين.. يراقبون استقامة الأحمال على ظهور الجمال ويوجهون القافلة.. الأرض اللينة الرملية، تبتلع أخفاف الجمال المثقلة.. كان مقطع الجبل ينفتح على منطقة حجرية خلف السلسلة الجبلية.. كانت تمتد مسافة بعيدة قبل أن تزحف عليها الرمال الناعمة، باستثناء نتوءات صخرية متناثرة كأنها قزح من السحب الداكنة، مبعثرة في سماء الرمال الصافية...

مراحل القافلة كانت تتوالى، مرحلة بعد مرحلة، في معاناة متكررة رتيبة.. نُحَمِّل الجمال وننطلق مع الفجر، إلى أن تتعامد الشمس على رؤوسنا في قيظ شديد. عندما يأكل الضوء ظلالنا نعرِّس، نحط الأحمال، نقيد الجمال ونبني الأخبية الخفيفة.. وتفتح أوعية الزاد التي تضم أيضًا عتاد ترقيع القرب والجرب، من إشفي ومخيط وسيور خاصة لهذا الغرض. في هجير القيلولة، ينطوي كل على نفسه في سكون إجباري فظيع... كأننا فقاعات طغت فجأة على جسد الأرض الملتهب. وعندما تميل الشمس إلى الغرب، وتهبط الحرارة قليلاً، نرحل ونواصل السير إلى أن نقضي الثلث الأول من الليل.. نعرس حتى الفجر. بغض النظر عن نوع المكان.

أصبحت أكثر انشراحًا في داخلي، بسبب معايشتي الدائمة للسماء بلا حواجز، أصبحت لي أبعاد كونية كالكواكب. كنت أنظر إلى الحصى اللامع كأنه هباء من نجوم ذُرَّ على الأرض.

مع المسير المتواتر الدؤوب، كانت الرمال تظهر بجميع الأشكال.. موج، جبال، كثبان، أودية من أنواع الحرير الناعم، مساحات لا نهائية من الحصى الجاف، الأبيض، الأسود، بحر من الرمال المستطيلة، المنبسطة، المتموجة، المستقرة، المكومة، المبعثرة. في كثبان ثقيلة تعلوها ذوائب رملية أكثر حركية، في تشكل دائم.

كانت الشمس قد تربعت على الكثبان العالية، لكن الرياح لم تنطلق بعد.. فقط، على الذوائب العالية، ثمة أنفاس متراخية تحرك أعراف الكثبان، أمواجًا رقيقة من الرمل كأنها دخان.. ظلال الضحى الداكنة تتطاول إلى الغرب منبطحة على الأرض.. كانت ثمة جماعة من الظباء رائعة في بقايا عشب في إحدى الوهاد الغائرة.. رفعت رؤوسها دفعة واحدة، عندما أطلت القافلة من الكثيب.. ثم ولت هاربة.. كان ثمة غياض تتخلل أشجارها فجوات، تتشابك بينها مصاريع الحنظل الذي تناثر بطيخه كالأكر.. أشجار الطلح الظمأى تشبه الأطباق المنصوبة على الأعواد.. بعض الجذوع معوجة، خالية من الأغصان. والبشام منبطح على الأرض يمد

أغصانه في كل الاتجاهات، كأنه مشاتل الدوم، تحاذيها سلاسل من نبات العشر بأوراقه العريضة الملبنة، وأعاليطه المعبأة بالكتان الأبيض. الأرض نقية، نظيفة، لها نفس صفاء السماء المنعكسة في العيون.

عندما لم يعد القيظ يطاق، حطت القافلة في وهدة غائر من الأرض يتضايق عليها كثيبان عظيمان على ذؤابتيهما ألسنة رقيقة من الحصى المتحرك كالأفاعي الصحراوية. لحقت بنا ظلالنا التي ظلت تطاردنا محتمية من ألسنة الشمس.. قيدوا الجمال، وتركوها ترعى (أوراش) الذي سيكون قليلاً أو منعدمًا في المراحل التالية.. لم يعد العبيد مكتوفين، لأن إمكانية الهروب انعدمت تمامًا في هذه الصحراء المتيهة المعطشة.

اجتمع الرجال تحت ظل شجرة قتاد، جيء لهم بماء مغلي صبوه على يبيس القديد المسحوق وأكلوا.. وراح العبيد يصبون لهم كؤوس الشاي.. كان بعضهم يرعى الجمال، وبعضهم الآخر، يدلكون أجساد أسيادهم المتكئين على الحصى الناعم.. كان ثمة تاجر سقط من فوق جمله بينما كانت القافلة سائرة.. أمر عبده أن يحفر له لحدًا في الشمس الحارقة.. دخل في اللحد وهال عليه العبد التراب الساخن.. لم يبق إلاّ رأسه..

رياح (إريف) الحارقة كانت تلطم الوجوه، تشويها، وتيبس الشفاه حتى تتكسر، وتسيل منها الدماء. بقيت جالسًا في الشمس، أحثو على جناحي التراب الحامي.. ربما يعجل ذلك في تيبس الجروح التي تركها الوثاق على ساعدي.

القيظ المخيم كأنما ضرب رواقًا من نسج العنكبوت على الأشياء وحبسها في ظلالها الصغيرة جدّا.. بركت الجمال في ظلالها وشرعت أعناقها نحو الشمس، كما علمتها غريزتها القديمة. (عجيب! هذا العالم الذي عرف جميع أنواع الكائنات، لم يبق فيه غير هؤلاء الرجال وجمالهم؟ لا يمكن أن يكون الإنسان، هذا الكائن الفاسد الظالم، أفضل من كل تلك الأمم والكائنات التي انقرضت وبقي هو.. كيف أرادت القدرة أن يكون الأمر كذلك؟...). مكثت طويلاً أقلب ساعدي في الأرض الحامية، وأغمض عيني بين حين وآخر.. لكن ذهني لم يهتد إلى أي حكمة من وراء بقاء الإنسان بعد أمم انقرضت... هذه الرمال النقية، السابحة في الضوء، كان يمكن أن تكون ذات جمال مطلق، لو لم تكن ملوثة بهذا البشر...

ترددت أصداء أذان الظهر بين الكثبان الموحشة.. تيمم الرجال، متوجهين القبلة، خلف أحدهم.. صليت معهم... (لماذا المساواة في الصلاة والقهر في الحياة؟ لماذا يكون حظ الناس من الدين مظاهره الشكلية، ويتجاهلون الجوهر الفاضل، ويعيشون في الظلم والجور؟)...

أتوا بالجمال، وأناخوها بين الأحمال، وانتهى الاستعداد في لحظات. أوقفوا الجمال، وانطلقت القافلة. أخذت الجمال وضعها التتابعي الثابت، وبقي الرجال يتحركون في جوانبها كالنحل.. يبدو أن العبيد الذين نزع عنهم الوثاق كانوا سعداء.. أما أنا فكنت أجتر يأسي.. ألمي لم يكن جسديّا، من جراح الوثاق، ووجع الأقدام الحافية، كان ألمي بسبب إحساسي بأني إنسان، وشعوري بالانتماء إلى الجنس البشري...

كانت القافلة تصارع بعناد وعثاء الرمال المتجمعة التي تسيخ فيها أخفاف الجمال.. الرياح الشمالية الشرقية كانت تجعل الكثبان تتدفق بانحدارات شديدة نحو الجنوب الغربي.. رأيت شجرة طلح تدفق عليها الكثيب فابتلعها وبقيت منها براعم صغيرة خارجة من الرمل كأنها يدا غريق يطلب النجدة، قبل أن يبتلعه الموج نهائيّا.. كانت هذه المنطقة مسرحًا لأغنام الغزلان.. وقد استطاع العبيد الإمساك ببعض أخشافها للعشاء. أودعوها بين أحمال الجمال.. كانت تصدر عنها ضوضاء فظيعة.

أسرعت الشمس نحو الغروب، أسلمت الجنُوبَ الشرقية الكثبان إلى الظلام الذي بدأ يغزو الأرض. كانت الظلال تلفظ أنفاسها الأخيرة إلى الشرق، متعبة من وعث الرمل. ظهرت الشمس عارية من ثوبها الأبيض.. عُرْيُهَا كلون الرمال التي لم تبتلعها الظلمة بعد.

لحظات قبل الغروب، ظهر في الأفق الشرقي البعيد، على رأس كثيب، رجلان من النمادي كأنهما شبحان.. يصحبان قطيعًا من كلاب الصيد.. كانا يسرعان نحو القافلة يهبطان وهدة، ويصعدان مرتفعًا.. كان الرجلان عاريين ككلابهما، منهكين من التعب والعطش.. أسرع أحد رجال القافلة ينزع علاقة قدح من فوق أحد الجمال.. حل شناق إحدى القرب التي بقيت فيها صبابة ماء.. ملأ القدح وقدمه للرجلين.. كرع الرجلان وكلابهم معًا في القدح، كل ذلك دون أن تتوقف القافلة، التي تهبط، وتعلو في أرض رملية وعثاء. كان العبيد يغنون للجمال المثقلة:

- آيا ية.. آيا ية.. آيا ية...

الأمواج الشديدة العلو والانحدار، تتحرك على قممها ألسنة من الرمال المتحركة. كان يتحتم على القافلة أن تفتش بعناية بين الكثبان الرملية المنحدرة المنبثة في فوضى كاملة، عن منقطعات يمكن السير عبرها.

توقفت القافلة بعد الثلث الأول من الليل.. أوقدنا عدة نيران للتدفئة وشيّ اللحم.. كانت وجوه الرجال، وهم ينتهشون اللحم، تبدو في مظهر متوحش.. ومن حولهم كان الظلام قد سرق الأرض، لم يعد موجودًا غير النار والرجال. كنت أحس أن خلف دائرة ضوء النار كائنات صحراوية.. بينها اليرابيع، والفئران، والنمل الفضي والجعلان، والزواحف، والأشباح، وثعلب الصحراء الذي لا يمكن تفاديه، السريع العَدْو، الشديد المهارة في اختطاف اللحم، الذي يترصد القوافل دائمًا. استسلمت القافلة لهدوء الليل. عدد لا متناه من النجوم اللامعة والخافتة، القريبة والبعيدة، مرصعة في قبة السماء.. برج التبانة فرش بساطه الضوئي في السماء فقسمها نصفين.

استسلمت القافلة لهدوء الليل. عدد لا متناه من النجوم اللامعة والخافتة، القريبة والبعيدة، مرصعة في قبة السماء.. برج التبانة فرش بساطه الضوئي في السماء فقسمها نصفين.

فجأة صوبت كلاب النمادي آذانها ورؤوسها إلى أعلى.. وأخذت في عواء متصل.. وظهر في الأفق الغربي ضوء شديد غير مألوف.. ضوء سريع ظهر على إثره مذنّب.. يزداد ضوءه شراسة على قدر ما يصعد في السماء. كان يجر وراءه ضفائر من الضوء البلوري الشديد اللمعان.. اختفت النجوم تمامًا سوى الوافد الجديد.. بدت الأرض كأنما طلعت عليها ألف شمس دفعة واحدة..

أخذ المذنّب يميل مبتعدًا إلى الشرق.. وذيوله الضوئية تخفت تدريجيّا.. ورجع الليل إلى الأرض، وعادت السماء إلى سكونها.. وخيم على المعرَّس سكون الموت.. كانت الوجوه مرعوبة، العيون جاحظة، الأفواه فاغرة، لاهثة.

أخيرًا بدأ بعضهم يسترجع قدرته على الكلام:

- هذا انتقام من الله.. علامة من علامات الساعة!..

- هذه آية يجب اعتبارها.. والتفكر فيها!

- ستكون السنوات العشر التالية سنوات كد وتعب!

عندما ظهر المذنّب أحسست بي كأنما تخلصت من الجاذبية.. فطرة التكوين الأولى زادت أبعادًا جديدة.. أصبحت غريبًا على الأرض.. أحدث المذنب انقلابًا في كياني.. لكن إحساسي بآلامي الجسدية، والمعنوية ظل قائمًا.. بل ازداد.. أمضيت بقية الليل واقفًا، عيناي تحملقان.. وذهني غارق في استجلاء مصيري.

عند الفجر ذكرني سيدي بواقعي الفعلي، لكن يا للتغيير العجيب! أخمص قدمي لا يكاد يلامس الأرض، كأنني أسير على لجة. انحدرت مع مهوى الكثيب كأني أتزحلق على جليد.. الجمال كانت تنظر إليّ كأنها غير مستيقنة مما حدث لي.. أما الرجال فقد أعماهم عنادهم وانسياقهم مع مألوف عادتهم.. أوقدت النار، وساعدت في رفع الأحمال على الجمال.. صفّر النمادي لكلابهما.. واندسّا في موج الرمال مغربين.

كان تحميل الجمال قد انتهى، ووقف البعض منها، ولم يبق سوى تعليق صغار الأمتعة، عندما انقض أحد العبيد على سيده. راح يخنقه بعنف، حتى كادت عيناه تقفزان من محجريهما قبل أن تصل إليه النجدة.. يبدو أن العبد أصابه مس من جنون، كواحدة من تأثيرات المذنّب.. لم يتمكن الرجال من الفصل بينهما. قوة العبد أصبحت خارقة للعادة.. يبدو أنها تجمعت كلها في يديه القابضتين على عنق سيده الذي أصبح وجهه قرطاسًا أبيض، ولسانه خارجًا مُدَلّى من شدقه الأيمن كسلى الأتان!!

أخذ أحد الرجال قدومًا، هوى بها على رأس المجنون ففلقه نصفين ودوت صيحة مرعبة في الفضاء.. هوت الجثة على الأرض، وتجمدت اليدان على عنق الرجل، الذي هوى ساقطًا مع الجثة.. تبين أنهما جثتان تقبض

إحداهما على عنق الأخرى.. لم تنفك القبضة إلاّ بتكسير أصابع الجثة واحدة بعد واحدة. دماغ العبد الأصفر كان يسيل متباطئًا على الرمل الذي ألزقه الدم. غسلوا الضحية بحصته، وحصة عبده من الماء.. ووضعوا قطعًا من كتان في منخريه وعينيه وأذنيه، وكفنوه في كفن أبيض وصلوا عليه.. ودفنوه.

كانت أمواج الرمال قد أخذت تصغر عما كانت من قبل.. أصبحت روابي حية، بدل كثبان رملية ميتة.. وكانت أشجار المرخ تنبئ عن دخول القافلة منطقة جديدة.. كانت السهول مرصعة بدوائر سوداء من بول النعام.

كان القلق من العطش يتزايد كلما توغلت القافلة في المجدبة الكبرى.. وكان الماء يزداد سوادًا ونتنا رغم جودة القرب المسلوقة بالدهن والقطران. لكن ذلك لم يمنع بعضهم من محاولة سرقة الماء ليلاً.. كل واحد يحاول استبقاء نصيبه من الماء أطول فترة.. كان الماء موزعًا توزيعًا صارما. كانوا يكشفون على بول كل واحد، حيث تبين درجة زرقة البول نسبة الماء فيه.. وكانوا يعرفون أن فلانًا شرب أكثر من حصته عندما يكون بوله أزرق فيحرمونه من حصته من الماء إلى حين.

كانت الرمال الآخذة في الاختفاء تبدو ألطف مما كان.. كانت تنحني وتدق، وتكبر وتنقطع كأجسام الحسناوات.. أصبح لجمالها بعد أنثوي.. كان نقاء الرمال، كأنما ينطوي على معاني الطهارة والنبل.. وكانت الظلال والأضواء المتباطئة عليها تمنحها معنى الحزن والأبدية.. أما في المناطق الساكنة فقد كانت أشباه الكثبان واطئة، رقيقة، مستطيلة، كأنها هياكل عظيمة من البلور، نحتتها الشمس وتعاقب الرياح.

في المعرَّسات الليلية كنا نوقد نيرانًا كبيرة للتدفئة، لا تخمد إلاّ قبيل الفجر.. عندما نكف عن إطعامها بالحطب.. كان الرجال ينامون منطوين على أنفسهم مشكلين دائرة حول الموقد.. ورغم البرد القارس، كان النوم يستولي علينا تحت وطأة التعب.

في إحدى الليالي المظلمة الباردة، وكانت النار خمدت، وتغطت الجميرات المتبقية بأردية سميكة من الرماد، أحسست على جسدي العاري بجسم صلب مبلل.. رجل متسارع الأنفاس، في لحظة من الدهش وهو يعانقني.. رفست بقدمي كرش سارق اللذة رفسة عنيفة، وبوثبة واحدة انفصلت مسافة عن الركب النيام.

أمضيت بقية الليلة منفردًا، على رأس ربوة، حذرًا، في قلعة حصينة لا يمكن اقتحامها.. بعيدًا عن كل مصادر الحرارة.

كانت الزهرة ما زالت تشع بلمعانها البلوري، عندما أحسست يدًا قوية تهزني.. سمعت سيدي يتلفظ بألفاظ الشتيمة، ويستحثني للقيام لإنجاز المهام المألوفة.. نزلت مهرولاً مع منحدر الربوة.. أشعر قليلاً ببرودة الأرض من أخمص قدمي.. جمعت حطبًا أوقدت فيه النار.. كان الدخان يخرج من فمي مكونًا سحابة صغيرة أمام وجهي. شرعوا في صلاة الصبح. حاولت بلا توفيق معرفة سارق اللذة، لكنهم جميعًا كانوا خاشعين.. وليس بينهم من يمكن اتهامه بهذا النوع من الموبقات. لكني كنت موقنًا أن المذنب من بينهم.

عندما ذهبت لإحضار الجمال كدت أطأ أفعى نائمة.. ومن حولها آثار العصافير الصغيرة..

قبل طلوع الشمس، دخلت القافلة منطقة من السهول.. أحيانًا تحفر الرياح بين كثبانها فتكشف عن القشرة الأصلية للأرض.. الأماكن الصامدة في وجه الرياح، بقيت على شكل تلول صلبة مائلة للسواد.. الحصى في هذه المنطقة أدق من المألوف.. شديد البياض كرغوة اللبن.. وأحيانًا يكون له لون الرماد، أو ورديّا، أو أصفر ذهبيّا.

في هذه المنطقة القصية، كانت الرياح تدحرج الكثبان، وتكورها في تجمعات منفصلة.. وأحيانًا تختفي الكثبان كليا فلا يبقى غير الثنيات الصلبة الأصلية.. وربما يلاحظ وجود أجنة من الكثبان لفظتها الأرحام قبل اكتمال خلقها، وألقت بها على الصعيد.. كأنما هي ملصقة عليه مؤقتًا.

في مرتفع الضحى توقفت القافلة.. كنا في غيضة من شجر السرح ناعمة مخضرة تمتد شماريخها المحملة بالأوراق قدر ذراع.. كان واضحًا أن القافلة توقفت هذا التوقف غير العادي، لإعطاء الجمال فرصة التزود من السرح الذي سيكون هذا آخر عهد به.. الجمال تحبه كثيرًا..

قطرة من سحاب! كان الوقت ثقيلاً.. جو الأنواء.. في أعالي السماء سحابة داكنة في الوسط أطرافها بيضاء، تمطر، لكن المطر يتبخر قبل أن يصل الأرض.. قد تنجو بعض القطرات من التبخر بمعجزة!! السحابة شحنت الجو بالكهرباء.. الجمال كأنما أصابها مس من جنون.. لا تستقر على حال.. عجلت القافلة رحيلها للإفلات من محيط طيف الزوبعة وجوه المكهرب.

دخلنا منطقة شاسعة، شديدة الاستواء.. عارية تمامًا كسطح المرآة.. حصاها أحمر أكبر قليلاً من الحصى العادي.. الحصى الأحمر يغطي كامل وجه الأرض كأنه بساط من حرير تهدهده الرياح.. بعد حين بدأت تظهر مساحات طويلة من الرمال الرقيقة البيضاء مجعدة ظهورها من جر أذيال الرياح، كأنها حصائر نمقتها الصوانع..

استمر سير القافلة تعلو وتهبط بين حفر وربى متقاربة،. حولت القافلة إلى (تنين الرمال).. مد البصر لم يعد يتجاوز المسافة بين الربوتين، أحيانًا تتصل ربوة بأختها فتحسبهما ربوة واحدة.. في الأصيل والصباح فقط تستطيع أن تميز ذلك بمساعدة الظلال.

السير في هذه التموجات التي لا حدود لها لا يولد التعب لأن الأرض صلبة تحت الأقدام والارتفاع والانحدار كلاهما خفيف، لكنه رتيب وممل ومحزن.. الأفق ينتقل خلف كل خط من خطوط مزرعة الرمال اللامتناهية. العين لا يمكن أن تميّز ما تهتدي به. المنظر واحد في جميع الاتجاهات. القوافل تخشى هذه المنطقة. يقولون إنها وطن للجن.. ويقولون إن النجاة من التيه نادرة، خاصة إذا ما نشطت الرياح، وسوت بين الأرض والسماء في بحر لامع من الغبار لا يميّز فيه بين الأشياء.

فقدت هويتي من طول التيه في هذا المحيط. لم أعد أعرف من أنا: (هل أنا الشاب الفنفاري الوثني الذي كان يعيش بسعادة في بلاد الذهب؟ أم أنا العبد المسلم الذي يقطع المجدبة الكبري لا يدري إلى أين؟ أم أنا ذلك الكائن الأرضي (المسكون) بعناصر كونية غريبة على الأرض جعلتني أهيم بأكوان أخرى؟.. قد لا أكون واحدًا منها، بل الثلاثة معًا.. في وقت واحد...).

كانت فكرة تنضج في ذهني رويدًا رويدًا: لن أرافقهم حتى سجلماسه! يجب الهرب في أول فرصة.. لكن كيف يمكنني الانفصال عن القافلة دون أن يكون ذلك انتحارًا في هذه الصحراء الرهيبة؟ كنت ساهمًا في هذا التفكير، أسير مُطأطأ الرأس، إلى أن تعثرت في جثة شجرة من الحلفاء نفر منها زوج من الظربان (سيلال لعرافيبْ) أشهبان.

هاجمني أحد اللاحمين، ولم يصد عني إلا بعد نجدة من عدة رجال راحوا يضربونه بعصيهم.. الآخر نهش عرقوب أحد الجمال.. فجفل ورفس، وقطع زمامه.. ركض رجلان بجانبه، (هوكي! هوكي! أك! أك! أك! كر كر! كر كر!) كانا يحاولان الإمساك ببقية زمامه، والتربيت على يديه.

(بُونَيْنَاتْ) فضية لها سرعة البرق، كانت تلوح لتختفي، تغوص كالمخيط، في الأرض المكسوة بالحلفاء. يسمونها (بُونَيْنَاتْ) لأن لديغها كما يزعمون إنما يئن أنة واحدة قبل أن يموت.

هبت سموم نارية أرغمتنا على التعريس في منتصف المرحلة. يبست القرب.. تبخرت المياه منها بفعل السموم الجهنمية. لجأ الرجال العطاش إلى الجمال. نحروا اثنين منها.. نزعوا كرشيهما.. وأدخلوا في كل كرش إضمامة من الحشيش.. عملوا منها مصفاة لعزل الماء عن الفرث.. ثقبوا الكرش من أسفلها فسال ما بداخلها من ماء. أصاب جميعنا جرعة من ذلك السائل النتن الذي أنقذ أهل القافلة من موت كان محققًا.

كان دليل القافلة يتكلم عن بئر يمكن الحلول بها إذا سرت القافلة ليلة كاملة.. لكن بقية يومنا ضاعت لأن العطش يمنعنا من مجرد التفكير في الرحيل قبل غروب الشمس.

حفر العبيد لحودا.. وتوارى كل واحد في لحده في انتظار الليل المنقذ. تحول الزمن في ذلك الأصيل الغادر إلى عدو ليس من مصادقته بد، يتحرك واقفًا، تبتلعنا ساعته الرملية.

الكثبان الرملية الميتة المستطيلة، تفصل بينها سهول يسرح فيها البصر ولا يدرك لها نهاية.. مر قريبًا منا قطيع من المها.. لم يفكر أحد في إزعاجه، كان ينبش بأظلافه عن عروق الزؤنون ويأكلها.. وأقرب من ذلك كانت عصفورة تنبش عن مومياء جرادة.

في الصحراء أصبح عندي حس شديد الدقة، ربما بسبب الخلاء، أو بتأثير المذنب.. كنت أرى التفاصيل الدقيقة لكل شيء، كل حصاة.. وأتابع التفاصيل الدرامية للعالم الصغير الذي ليس في متناول البشر العاديين... كالملحمة الشرسة التي جرت بين الزنبور المتوحد وفريسته، وذبابة العنتر والجمل..

كان الزنبور قد فتك بفريسته.. فصل رأسها، وقوائمها، وأجنحتها.. وبدا يسحبها تجاه وكره، ومكمن بيضه. كان قد وصل إلى عتبة مخدعه عندما أحس بالعنتر ينقض على ظهره، وينفذ فيه أظافره الطويلة السوداء.. أبعد العنتر الزنبور عن جسمه لكي لا يلدغه، مدة الزمن القصير الكافي قبل شله.. كان ما زال يمتص دمه عندما أحس كأن السماء انطبقت على الأرض.. بالكاد استطاع أن يرفع جبهته المثلثة الغائرة بين عينيه.. وضع الجمل دون أن يشعر طبقه على الجميع، وغاص الكل في الأرض..

عندما غرقت شعلة الجحيم الحمراء خلف أمواج الصحراء، خرج الرجال من لحودهم، وحملوا القافلة بسرعة، وانطلقوا لمسيرة ليل طويل.

مع طلائع الفجر، تتالت صيحات الدليل:

- غلاوية! غلاوية!

تناقل الرجال الخبر.. إنها الكدية التي توجد في أسفلها البئر.. انقضى اليوم في معاطن البئر. شرب الناس، والجمال وامتلأت القرب، وغسلت الأسمال.. وعند منتصف النهار كان كل شيء جاهزًا للرحيل.. لكن الدليل فضل المبيت عند البئر ليعل الجمال بالشراب من الغد.. في تلك الليلة عند البئر، لم يغب عني صوت الرجل القصير، أبو الهامة، في جناح الكلام، بسوق أودافوست. كانت كلماته تدق أذني باستمرار: (إذا كنت رافضًا للقدر، فاعتزل البشر، وانفرد في الصحراء، وانتظر أمر ربك!)...

أجمعت أمري على الأخذ بهذه الحكمة.. بقيت مستيقظًا.. عيني ملأى بالنجوم.. كان الهلال يرسل ضوءا خافتًا على القافلة المعرِّسة ومتاعها المبعثر. وعند منتصف الليل غطت جميع العيون غشاوة النوم.. رحت أتسلل رويدًا رويدًا بين الأحمال. أفتش عمّا يمكنني حمله من زاد.. تحسست مخلاة من النوع الذي يحملون فيه طحين القديد. فككت رباطها لأتأكد.. وحملت إحدى قرب الماء.. وغادرت المعرَّس على عجل، تلقاء الكدية، أهوي مسرعًا كثعلب الصحراء على الباطن الرملي المريح.

مع الصبح سيكون أثري الخفيف قد مسحته الرياح نهائيًا.. سيثبط ذلك عزيمة من يفكر في ملاحقتي.. وسيكون بوسعي أن أبدأ خلوتي على قمة الكدية دون تشويش من أحد